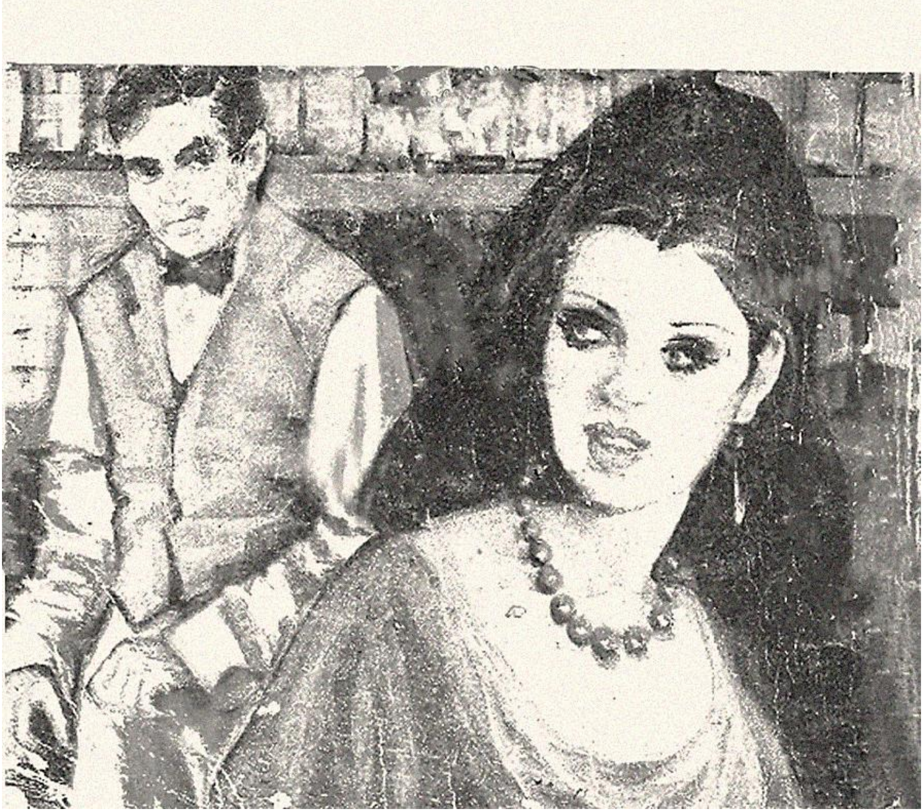
روايات الهلال

شتاء الأحزان

جون شتاينبك



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٥٦ ـ اغسطس ١٩٧٨ ـ رمضان ١٣٩٨
No. 356 — August 1978

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما • عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ فى سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، فى الاردن ٢٠٠ فلسا ، فى العراق ٣٠٠ فلسا ـ فى الكويت ٣٠٠ فلسا ـ فى السعودية ٥ر٣ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا ـ فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٥ر٢ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • وفى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية • والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

شتاء الأحزان





دار الهلال

مقدمة

ازجى الينا الكاتب الأمريكى الأشهر « جون شتاينبك » فى هذه الرواية قصة فياضة بالقوة حافلة بالحياة والمرح والحب ، تصور فى واقعية اخاذة مقترنة بالتحليل الدقيق أنماط حياة شخصياتها الفريدة وصراعاتها فى تلك البلدة الصغيرة باقليم نيوانجلند الأمريكى، وخاصة « ايثان » بطل القصة الذى يستهويه صراع الحياة العنيف ومغرياتها التى تعصف بالنفوس وتخلخل القيم ، و « مارواللو » الايطالى رب المال المحنك الذى يعمل « ايثان » أجيرا عنده ويتلقى فى مدرسته أسرار المهنة وأصولها ، و « مارجى » المرأة المغرية العابثة التى لا تكل من نصب شراكها حول الرجال ولاسيما « ايثان » مستعينة فى ذلك حتى بالسحر وقراءة الطالع ـ وكيف يبدأ « ايثان » حياته مجدا كادحا مؤمنا بالفضائل ، فاذا لاحت له بوادر النجاح ضعف أمام اغراءاتها القوية متأثرا فى هذا بحياته الكادحة وظروفه العائلية العانية وبيئته الانتهازية المتنافسة حتى يكاد يتخلى عن استقامته ومثله الطيبة ليجد طريقه فى النهاية وقد تفجرت فيه الألغام وانطمست المعالم وابهمت السبل ، حتى اذا ضاقت الدنيا فى وجهه سعى الى التخلص من حياته لولا بصيص ضياء لاح له لكى يعدل عن عزمه ويرتد الى الجادة .

بيد أن هذا المجمل لاينبغى أن يحجب عن النظر تلك الملابسات الدقيقة التى اقترنت بأحداث الرواية والتى توخاها المؤلف وهو يعرض لنا تسلسل الأحداث وتشابك الوقائع لكى يجعل منها مادة فكرية تتجاوز نطاقها المحلى المحدود الى الدائرة الانسانية الأوسع التى تتشابه فيها نحائز الناس وغرائز البشر وتضطرب على مسرحها شتى النوازع من خير وشر ومن فضائل ورذائل ومن مثل عليا تستشرفها القلة المختارة ومطامع مادية يتعلق بأذيالها السواد الأكبر، بحيث اذا تعمقت القصة ونفذت الى مراميها لم تجدك تقرأ سياقا قصصيا ممتعا وحسب ، وانما الفيتك تستشعر أحاسيس مشتركة تكاد تتفاعل فى كل بيئة مجردة عن المكان والزمان ، وتجاوبا فكريا

نابعا من الانتماء الى البشرية فى عمومها . وربما كان من الخير ان نعرض لهذا بشىء من التعقيب دون مســـاس بالسياق القصصي او الدخول فى صميم الأحداث حتى لا تفوت القارىء متعة الجدة وطلاوة المتابعة .

ولعل أول ما يعرض لنا من هـذا هو قضيـة العلم والعمـل وصلاتهما الوثيقة بمعترك الحياة . فقد نبغ « ايثان » بطل القصة فى العلوم الانسانية التى صقلت فكره وشحذت مواهبــه وانارت بصيرته فلم يعد مجرد الانسان العادى الذى يساق فى خضم الحياة دون ارادة ولا وعى أو تدبر ، وانما هو يتناول بالتفكير والتحليل والتأمل كثيرا مما يعرض له فى حياته ـ أحداثا وأناسا ـ على نحو يفتح أمام القارىء منافذ عديدة يتأدى منها الى أطوار النفس البشرية وأدق خلجاتها وخوافيها ، الى حد انه يتخذ لنفسه ملاذا بين شعاب الـكهوف البحرية يخلو فيه الى نفسه كلما حزت به الأمور واعيته سبل التصرف لـكى يجد فى هداته من الصـفاء النفسى والاشراق الفكرى ما يبدد الظلمات ويهديه الى وجوه السداد ـ ذلك وهو مجرد بائع فى محل بقالة لاينال من الأجر ما يمسك عليه حيـاته وحياة أسرته . الا ترى ان اختيار المؤلف لشخصية هذه سماتها انما هو اختيار بارع ان كان يترجم عن تصـــويــر لأنماط العيش السائدة فى المجتمع الأمريكى ومايماثله من المجتمعات الغربية الأخرى من حيث اعتبار العلم والتعليم لا مجرد سلاح يتوسل به الانسـان لشق طريقه فى مفاوز الحياة وانما هو منفذ الى غاية أسمى وهى صقل هذه الحياة المادية بما يسبغ عليها الطابع الجمالى بكل عناصره الفكرية والنفسية والروحية والمعنوية حتى تصبح الحياة فى النهاية أسمى من مجرد تحصيل « لقمة العيش » وأحفل بالتذوق والمتاع؟ ثم الا يسوقنا هذا الاختيار الى مقارنة محتومة ـ مجرد مقارنة ـ بين مايتوخاه شبابنا من التعليم ـ ولا نقول العلم ـ من مجرد التلقين والتحصيل لنيل الاجازة الجامعية والفوز بعـــدها بالوظيفة العامة كمحط ينتهى عنده كل هدف ويجمد أو ينعدم بعده كل سعى للتزود من العلم بما يحفظ على الفرد كيانه الانسانى وذاتيته المتميزة فى مجتمع نابض بالحيوية الفكرية فى كل مجال ؟ للقارىء أن يضيف الى هذا ما يشاء ، وأن يخلص فى النهاية الى أن انبعاث شبابنا الى هذه الوجهة التعليمية العلمية بكل أو بعض مقوماتها كفيل بتغيير حياتنا الفكرية الرتيبة والتخفيف من أوجه القصور والتعثر والحيرة

التى يعانى منها شبابنا ومجتمعنا والارتفاع بها الى مستويات وذرى خليق أن يبلغها شبابنا وهو على ذلك قـدير وله اهل اذا وعى وتدبر وصمم .

وقضية ثانية نستشفها من أحداث الرواية هى قضيـة الفقر والغنى وصلتها بالحياة التى يحياها الناس . كان « ايثان » بطل القصة سليل أسرة ذات حسب ونسب ، فلما ذهب عنها الجاه والمال واتجه الشاب الى العمل والكدح لكسب القوت مستمسكا فى ذلك بأسباب الاستقامة اذا كل من حوله يعيرونه بفقره : زوجة تثقل عليه بمطالب البيت والأولاد وتهيب به الى الاستزادة من المال لكى يكفل لهم رغد العيش ويدفع عنهم المذلة بين النـاس ، ومجتمع متكالب على المال يسعى الى اقتنائه بكل الوسائل مشروعها وغير المشروع ، واغراءات تعرض له وتلح عليه ليقتنص بدوره مايستطيع حتى لو توسل الى هذا بقبول الرشوة والسطو على المال . فماذا يكون مسلكه بين هذه المحاذير التى يأبى عليه طبعه الوقوع فى مزالقها وينأى به فكره المتدبر دائما عن التردى فى مهاويها ؟ انه رغم ذلك يريد المال والغنى ـ لا لذاتهما ـ ولكن لكى يحقق لأسرته ما تطمع فيه ولكى يتساوى مع الأنداد والجيران . وهو يسلك الى هـذا سبلا متعددة حرص فى بعضها على الاستمساك بنواميس الاستقامة وجرفه التيار فى بعضها الآخر الى التفكير الآثم لالتماس المال غصبا ، لولا أن تداركته المقادير وعصمته من التورط الفعلى فى الاثم وهيأت له من المال والجاه ما هو حقيق أن يبدل حياته .

وقضية ثالثة يطرحها « جون شتاينبك » من خلال هذا العرض القصصى الشائق ، هى قضيـة الأبناء وتنشئتهم مزودين بالعلم والخلق . فنرى ابن « ايثان » الصبى اليافع يكاد ينصرف عن التفرغ للتعليم متعجلا للشهرة والمال عن طريق المسابقات التليفزيونية التى تتنافس الشركات الاذاعية فى تقديمها ، وقد أدى به الجنوح فى هذا المسلك الى افتعال نجاح فرحت به الأسرة أول الأمر ، وعندما تجلى زيفه كان مخيبا لآمال الأب مقوضا لكل هذه القيم التى كان يسعى الى غرسها فى نفس ولده ، حتى لقد كانت هذه الصدمة أشد العوامل التى دفعت به الى التفكير فى وضع حد لوجوده كله لولا ذلك الضياء النفسى الذى يلوح له فى اللحظة الأخيرة لكى يرد عليه ايمانه وينفض عنه عوادى الخذلان واليأس .

وقضية رابعة ساقها المؤلف هى قضيـــية الانزلاق الى الخطيئة بتأثير المغريات النسوية التى ظلت تحاصره بها تلك المرأة العابثـــة اللعوب رغم اصطناعها الصداقة لزوجته . فهل يستطيع حبـــه لزوجته ووفاؤه لأبنائه ان ينأى به عن الاستسلام للغواية ويعصمه من الزلل ؟ للقـــارىء ان يستخلص النتيجة من ثنـــايا المحاولات والمحاورات التى تثير الفضول طوال السياق الروائى الحافل .

لكن ثمة قضيتين أخريين اجل شأنا واقرب الى العموم والشمول ان يكن « جون شتاينبك » قد عرض لهما فى ايجاز فان لهما من الخطر ما يضعهما فى قمة القضايا العالمية الـكبرى . احداهما هى قضية الحرب والسلام وصلتهما الوثيقة بأسـلحة الدمار النووى الذى يهدد البشرية كلها بالفناء ما لم يتغير أسلوب معالجة القضية تغيرا جذريا له فيه راى طريف ان يكن اقرب الى الغيبيات فانه قمين أن يمسك على البشرية سـلاحها وامنها ويدرأ عنها مهالك الدمار والفناء . وثانيتهما هى قضية الفساد السياسى الذى تعانى منه مجتمعات دوليةكثيرة ولـكنها اكثراستشراء فى المجتمع الأمريكى. ولعل أخطر ما فى هذه القضية هو اتخاذها سلاحا ماضيا فى معارك المنافسات الانتخابية لا بهدف الاصلاح ولكن لأغراض القضاء على الخصوم والتخلص من المنافسين . ولعل ما نقرأه من هـــذا فى تقلبات المعارك السياسية الأمريكية هو تأكيد لما ازجاه المؤلف من اخطار هذه القضية على الحياة السياسية وتحذير من الانسياق فى تيارها الجارف الذى اضحى فى العهود الأخيرة يهدد بتقويض استقرار مجتمع السياسة الأمريكية وغيره من المجتمعات المماثلة ، وهى قضية ذات ارتبـــاط ملحوظ بالاستقرار والأمن العالميين .

وبعد ، فلا ينبغى أن نقول ان هذه القضايا وامثالها قد ساقها المؤلف عامدا وأبرزها سافرة وذات كيانات مستقلة عن القصـــة ذاتها ، ولكنها البراعة القصصية التى تمزج القصة القوية والأحداث الروائية المحبوكة باللمحات الفكرية الثاقبة التى تستخلص مراميها من خلال السياق والتى يبرع فيها اساطين القصة العالميين من امثال « جون شتاينبك » . وفى هذا ما يسلك القصة بين شوامخ الآداب العالمية ويجعل الوقت الذى ينفق فى قراءتها معينا من الزاد الفكرى والامتاع الأدبى يضيفه القارىء الى رصيده المدخر .

محمود مسعود

الجزء الاول

الفصل الأول

ما أن اهلت بواكير هذا الصـــباح المشرق من شهر ابريل حتى استيقظت مارى هاولى ثم انثنت الى ناحية زوجها ، ولما رأته يهم بمعابثتها بادرته قائلة :

ــ الا تكف عن هذا الهذر يا ايثان ؟ أم ان المعاكسة اصبحت متأصلة فى طبعك ؟

ــ قولى ياحبيبة الروح ، هل تقبليننى زوجا ؟

ــ هل استيقظت فعلا ، أم انك لازلت مخدر الحواس ؟

ــ ان السنة كلها قد اجتمعت فى هذا اليوم ، واليوم كله قد اجتمع فى هذا الصباح البديع .

ــ اذن فقد استيقظت فعلا . هل تتذكر ان هذا يوم الجمعة الحزينة ، وعيد الفصح على الابواب ؟ وهل سيدعك مارولو تغلق محل البقالة فى الساعة الحادية عشرة صباحا ؟

ــ ان مارولو يا مهجتى رجل لا يتقيد بأى عرف ، والأرجح انه لن يظهر طول النهار . سوف اغلق المحل عند الظهر الى أن تنتهى المراسم المقدسة .

ــ يخيل الى انك لا تتكلم عنها بالاحترام الواجب ، وهذا شيء غير لطيف .

ــ هذا الاسلوب ورثته عن امى ، وهو اسلوب القراصنة فى الكلام .

ــ انهم لم يكونوا قراصنة . انت نفسك قلت هـــذا ــ كانوا صيادى حيتان ، وكانوا معتمدين من الـكونجرس فى ذلك العهد .

ــ ان السفن الانجليزية التى كانوا يطلقون عليها النيران كانت تعدهم قراصنة .

ــ هذا خلط فى الـكلام يا ايثان . ان كل الظروف تدعوك الى الفخر بنسبك . فاسرتك كان فيها المهاجرون الأوائل الذين استوطنوا اقليم نيوانجلند هذا ، وكان منهم ربابنة سفن صـــيد الحيتان .

واجتماع هذا فى اسرة واحدة يدعو الى الفخر حقا .
ـ وهل أجدادى العظام يمكن أن يشعروا بالفخر اذا عرفوا انهم انجبوا بائعا لعينا فى محل بقالة لعين فى بلده كانوا من اكابرها ،
ـ انت لست هكذا . انت اقرب الى مدير للمحـــــل ، فانك تمسك الحسابات، وتورد النقود للبنك، وتباشرطلب السلع للمحل.
ـ صـــحيح . وانا ايضــــا اكنس المحل وانقل القمامة واداهن مارولو ، ولو كنت قطة لأكلت ايضا فئران مارولو .
فطوقته مارى بذراعيها قائلة :
ـ دع عنك هذا الـكلام السخيف ، ارجوك الا تذكر هـــذا القذف ونحن فى يوم « الجمعة الحزينة» ، اننى أحبك . وكلامك انسانى أن اكلمك عن « الأولاد » .
ـ هل دخلوا السجن ؟
ـ أراك عدت الى السخف من جديد . ربما كان الأفضل أن يخبروك هم .
ـ ولم لا تخبريننى انت ؟
ـ ان مارجى الملقبة « بالصيادة الشابة » سوف تقرأ لى الطالع مرة اخرى اليوم .
ـ من هى مارجى هذه ، التى يتهافت عليها العشاق و ... ؟
ـ أنت تعرف اننى لست غيورة ، وان كانوا يقولون انه عندما يتظاهر الرجل بالاستخفاف بفتاة جميلة ...
ـ تلك المخلوقة فتاة ؟ انها تزوجت مرتين !
ـ ان ثانى الزوجين توفى .
ـ أريد أن أفطر . هل تصدقين تلك الخزعبلات ؟
ـ لابأس . ان مارجى قرأت الطالع الأخى ، قالت ان شخصا قريبا وعزيزا سوف ...
ـ ... ان شخصا قريبا منى وعزيزا على سوف ينال رفسة اذا لم يقم حالا باعداد الافطـــار .
ـ ساذهب . بيض ؟
ـ اظن .
وفعلا لم يكد ايثان ينتقل الى المـكان الصغير المخصص للطعام قرب النـــافذة حتى وجد القهوة معدة الى جانب البيض والخبز المحمص . وفى اثناء الطعام دست فى جيب صدره قائمة بالأصناف المطلوبة للبيت قائلة :

ـ انها تبدو كثيرة ، لـكن لا تنس ان هذه عطلة عيد الفصح .
« دستتا » بيض على الأخص . سيقوم الان وايلين بتلوينهما .
يحسن أن تذهب الآن .

ـ حسنا يا زهرتي العاطرة ، لـكن الا يمكن ان اصعد اليهما واتحفهما « بعلقة » ؟

ـ انك تدللهما أكثرمن اللازم يا ايثان. الآن اذهب‌على بركة الله .

خرج ايثان الى اشراقة الصباح المونق بالخضرة واشعة الشمس الذهبية ، ولم يتمالك أن تلفت خلفه يستجلى مشهد البيت العتيق البديع ، بيت أبيه واجداده ، الأبيض الطلاء والمشيد على هيئة سفينة تعلو مدخله تلك النافذة الدائرية الـكبيرة ، وتحف به‌حديقة يانعة الخضرة ، حفلت بالزنابق التى يرجع عهدها الى مائة عام .. ثم تابع سيره الى شارع « ايلم » حيث التقى فى منتصفه بصراف البنك جوموروف خارجا من دار أسرة فيليبس التى تحولت الآن الى « بنسيون » ، وما ان رآه مورفى حتى حياه قائلا :

ـ أهلا يامستر هاولي ، كنت فى طريقى اليك .

كان جوموروفى أشبه فى ملامحه بحصان ، خصوصا اذا ابتسم وبدت أسنانه الـكبيرة المربعة ، ولـكنه كان محبوبا فى بلدة « « نيو بايتاون » هذه رغم انه قدم اليها منذ اعوام قلائل ، وكان محاسبا ماهرا وصرافا متمرسا ، حتى أن مستر بيكر رئيس البنك منحه ثقته الـكاملة الى حد انه وكل اليه معظم العمل فى بنك « فيرست ناشونال » ، وكان مورفى يعرف كل شخص معرفة وثيقة ، ولكنه لم يكن ينادى أحدا باسمه المجرد ، فهو ينادى ايثان باسم مستر هاولي ، ومارجي « الصيادة الشابة » باسم مسز «يونج هانت» ، على الرغم من الهمس الدائر بأنه على علاقة سرية بها ، ولم تكن له أسرة ولا أقارب ، وكان يقطن وحيدا فى غرفتين بدار أسرة فيليب ، ويتناول أكثر وجباته فى مطعم فورماستر ، وكان حريصا على نظافته متأنقا فى ملبسه .

وسار الاثنان معا متجهين الى شارع « هاى » ، وفى الطريق قال مورفى :

ـ كنت أود ان اسألك : هل لك قرابة بأمير البحر هاولي ؟

فقال ايثان : تقصد ادميرال هالزى ؟ ان اسرتنا كان بها ربابنة كثيرون ، لـكن لم يكن بها امراء بحر .

ـ سمعت ان جدك الأكبر كان ربانا لسفينة صيد الحيتان ،

وربما كان هذا سبب خلطى بينه وبين أمير البحر .

ـ ان بلدة مثل بلدتنا لابد أن توجد بها اساطير ، مثل الأسطورة القائلة بأن بعض العاملين مع ابى كانوا يقومون بأعمال القرصنة ، يا له من يوم رائع لم أر ابدع منه فى حياتى !.. لماذا كنت تريدنى؟

ـ آه . نعم . اظن انك ستغلق المحل فيما بين الثانية عشرة والثالثة ، فهلا جهزت لى بعض الشطائر حوالى الحادية عشرة والنصف ؟ سوف أجىء اليك وآخذها ، مع زجاجة لبن .

ـ الن يغلق البنك أيضا ؟

ـ سوف يغلق ، لكننى سأبقى به لانجاز الحسابات المتاخرة ، ان عطلة كبيرة كهذه سوف تجعل كل النـــاس ، حتى كلابهم ، يتهافتون على سحب وصرف الشيكات .

ـ لم اكن اظن هذا .

ـ بل هو الواقع ، سلسلة اعياد : عيد الفصح ، وعيد الرابع من يوليو ، وعيـــد العمل ، كلها عطلات طويلة ، ولو أردت السطو على بنك لفعلت هذا قبل واحدة من هـــذه العطـــلات الطويلة ، فالأموال المعدة للصرف تكون كثيرة ، جاهزة ، تنتظر .

ـ الم تتعرض ياجو مرة لحادث سطو ؟

ـ لا ،لكن لى صديق تعرض للسطو مرتين .

ـ وماذا قال فى هذا ؟

ـ قال انه استسلم للفزع ، كل ما فعله انه انطرح على الأرض اذعانا للتهديد وتركهم يسطون ، وقال ايضا ان اموال البنك مؤمن عليها أكثر من التامين على حياته !

ـ ساحضر لك الشطائر عندما اغلق المحل ، عن طريق البـــاب الخلفى ، ما هى الأصناف التى تريدها ؟

ـ لاتتعب نفسك يامستر هاولى ، ساجىء اليك عبر الحارة ، اريد لحما مقددا وجبنا وبعض الخس و « المايونيز » ، ثم زجاجة لبن و « كوكا » لمـــا بعد .

وأردف مورفى بعد برهة :

ـ كيف حال مارولو ، الذى هو وحده عصابة « مافيا » ؟

ـ على مايرام فيما اظن .

ـ انه شخصية عجيبة ، الناس يعرفون براعته فى البيع والشراء واقتناص الصفقات الرابحة ، وان كانوا لايعرفون مبلغ ثروته ، اما

انا فلست فى حل من الكلام فى هذا ، لأن صراف البنك مفروض فيه الكتمان .

ـ وانا من رايك ، انك لم تكمل القصة ، هل قبضوا على اللصوص الذين سطوا على صديقك فى البنك ؟

ـ طبعا ، قبضوا عليهم كالفئران ، من حسن الحظ ان اللصوص ليسوا اذكياء ، لو ان جومورفى الف كتابا عنوانه « كيف تسطو على بنك » ، لما تعبت الشرطة فى القبض على اللصوص .

فضحك ايثان قائلا :

ـ اشرح لى هذا باختصار ، فانني أريد ان أفتح المحل .

فراح جو يقول :

ـ سيداتى وسادتى : اننى اقف امامكم هذا الصباح لكى ... لكن لا ... الأفضل أن اقول : كيف يمكن القبض على لصوص البنوك ؟ أولا ـ بالبحث عن السوابق ، ثانيا ـ تشاجراللصوص على المسروقات وايقاع أحدهم بشركائه ، ثالثا ـ فتش عن المرأة ، فلابد أن يبعثر اللصوص الأموال المسروقة على النساء ، رابعا ـ رصد من ينفقون بسخاء واستخلاص اللصوص بينهم .

ـ حسنا يا استاذ ، وما هو اسلوبك فى السطو ؟

ـ فى غاية البساطة ، لكل نقطة عكسها ، لا تحاول ابدا السطو على بنك اذا كنت من ارباب السوابق ، لايمكن لك شركاء ، قم بالعملية وحدك ، ولا تقل شيئا لأى انسان ، انس النساء تماما ، لا تنفق الأموال المسروقة ، وضعها فى مكان مأمون ولو لسنوات ، وعندما تحتاج الى المال خذ ما هو ضرورى فقط واحتفظ بالباقى فى حرز حريز .

ـ وماذا يكون الحال اذا تعرف احد على السارق ؟

ـ اذا حجب وجهه ولم يتكلم ، فمن الذى سيعرفه ؟

فوضع ايثان يده فى جيبه ثم اخرجها خاوية وهو يقول ضاحكا :

ـ سأكون مدينا لك بثمن هذه المحاضرة القيمة ياعبقرى البنوك!

فقال جو مورفى :

ـ سأنال الثمن شطائر !

وفى هذه اللحظة اجتاز الاثنان شارع « هاى » وانعطفا الى الحارة الفاصلة بين البابين الخلفيين للبنك ومحل البقالة ، فدلف جو مورفى الى باب البنك وفتح ايثان باب محل « بقالة وفواكه مارولو » ، وتوقف برهة فى مخزن المحل الذى تكدست فوق أرففه

المتصاعدة الى السقف بصناديق المعلبات من فاكهة وخضر واسماك ولحوم محفوظة واصناف جبن شتى ، واكياس الدقيق والبقول المجففة ، وما لبث أن فتح باب الحارة مرة ثانية واخرج أوعية القمامة المغطاة ، وعندما تحفز قط رابض للوثوب الى الداخل طرده ايثان منتهرا ، ثم عاد الى داخل المخزن واغلق الباب .

واجتاز ايثان الباب الفاصل بين المخزن ومحل البيع ذى النوافذ الزجاجية الكبيرة المظللة بالستائر المعدنية ، وكان هو ايضا مملوءا بالأرفف المتطاولة حتى السقف والتى تراصت فيها بأتم تنسيق وعناية المعلبات المعدنية ، والزجاجية التي لا حصر لها ، والتى كان يسميها « مكتبة المعدة » تفكها ، وحين أضاء الثلاجة الفولاذية الكبيرة اللامعة غمر الضياء الباهر ما بها من شرائح اللحوم والجبن والسجق والأسماك حتى كان لها مشهد أخاذ لم يتمالك ايثان نفسه من استجلائه والاعجاب به .

وانثنى ايثان الى درج فى المنصة الطويلة قرب مسجلة النقود واخرج « مريلة » طويلة مخططة شدها الى صدره ووسطه وربط عقدتها من الخلف ، ثم رفع يده باسطا كفه الى الأمام ونادى قائلا :

ـ صباح جميل يا مخللات منها اللعاب يسيل ، ويا معلبات فاكهة وخضر ولحم اليها تهفو المعدة وتميل !

ثم رفع الستائر الخضراء عن النوافذ الكبيرة وهو يهتف : ادخل أيها النهار المشرق ... وبعدها فتح الأبواب الأمامية قائلا : ادخلى يادنيا !

وانثنى على الأثر الى مكان المغسل الصغير فجاء بمكنسة لكنس الرصيف .

وفى هذه اللحظات اقبل مستر بيكر رئيس بنك « فيرسنت ناشونال » ، فأمسك ايثان عن الكنس وحياه قائلا :

ـ صباح الخير يامستر بيكر .

ـ صباح الخير يا ايثان ، هذا صباح جميل .

ـ جميل فعلا يامستر بيكر ، هذه بشائر الربيع .

فقال مستر بيكر فى وقفة يسيرة :

ـ كنت اريد أن اكلمك يا ايثان عن ذلك المال الذى آل الى زوجتك بموجب وصية اخيها ـ الذى زاد عن خمسة آلاف دولار ، اليس كذلك ؟

ـ ستة آلاف وخمسمائة دولار ، بعد خصم الضرائب .

– لاباس ، المبلغ مودع فى البنك ، مجرد ايداع ، ينبغىاستثماره أود أن أكلمك فى هذه المسألة ، ان هذا المال يجب أن يعمل .
– ان مبلغا كهذا لايمكن أن يكون له عمل كثير ياسيدى ، هو مجرد احتياط فى حالات الطوارىء .
– انا لست ممن يؤمنون بالمال العاطل يا ايثان .
– المسألة ياسيدىهىان هذا المبلغ بمثابة تامين مؤقت طارىء ، فى حالة حدوث شىء لى .
– اذن يجب أن تستخدم جانبا منه للتأمين على حياتك .
– هناك ناحية أخرى للمسألة ياسيدى . ان والدة مارى لاتزال على قيد الحياة ، وربما يمتد بها العمر .
– مفهوم . ان كبار السن يمكن أن يكونوا عبئا .
– ثم اننى لو استثمرت مال مارى ياسيدى ، فقد أمنى بالخسارة ، كما حدث عندما خسرت مالى ، وكما حدث عندما خسر أبى ثروته .
– انا أعرف انك تعرضت لهذا فعلا ، لكن الزمن تغير ، وهناك فرص كثيرة تتفتح باستمرار .
– اننى جربت فرصتى يامستر بيكر ، لا تنسى اننى كنت املك هذا المحل بعد الحرب العالمية الأخيرة مباشرة ، وقد اضطررت الى بيع عقاراتى الموروثة المئه بالسلع .
– أعرف هذا يا ايثان ، فأنا صاحب البنك الذى تتعامل معه ، واعرف طبيعة أعمالك كما يعرف الطبيب نبضك .
– صحيح ياسيدى ، وفى أقل من عامين أوشكت على الافلاس التام ، وكان لابد أن ابيعكل شىء باستثناء بيتى لكىاسدد ديونى .
– لايمكن أن يقع كل اللوم عليك بسبب هذا ، فقد كنت وقتها حديث العهد بالتسريح من الجيش ، ولم تكن لك خبرة فى مجال الأعمال ، ثم لا تنس ان موجة « الكساد الكبير » قد مستك أيضا ، انها اغرقت كثيرين من كبار رجال الأعمال .
– بل انها غمرتنى ياسيدى تماما ، فهذه اول مرة فى التاريخ يعمل فيها واحد من اسرة هاولي بائعا فى محل بقالة .
– هذا هو الذى لا افهمه يا ايثان، كل انسان معرض للافلاس، اما الذى لا افهمه فهو لماذا تظل مفلسا ، وانت المتعلم سليل الأسرة الكريمة ، لايمكن أن تظل هكذا على الدوام ، اللهم الا اذا كنت قد فترت عزيمتك ، ودب الخور الى قلبك ، ما الذى دهاك

يا ايثان ، وجعلك تستسلم لليأس ؟
فراح ايثان يقول بانفعال :
ـ الانسان لايستسلم لليأس بسهولة ، وبعبارة أخرى هو قادر على المقاومة والتصدى للصعاب ، ولكن ما يقتل الهمة هوالتآكل، ان عوامل التخوف والفزع تتسلل الى نفسه وئيدا ، وانا فى فزع دائم ، فقد تقطع شركة الاضاءة التيار الكهربائى فتمسى أسرتى فى ظلام وبرد ، وزوجتى بحاجة الى الملابس ، وأطفالى يطلبون الاحذية ـ والتسلية ، وماذا لو انهم لم ينالوا حظهم من التعليم ؟ ثم هناك فواتير المطلوبات الشهرية واجور الطبيب وعلاج الأسنان واللوز ، والى جانب هذا لنفرض اننى مرضت وقعدت عن كنس هذا الرصيف الملعون ؟ طبعا لا تفهم هذا ، العملية كلها تنخر ببطء فى همتى على مدار الأيام والليالى ، ليس فى قدرتى أن أفكر فى ابعد من قسط الثلاجة للشهر القادم ، اننى أكره عملى وانا فى فزع دائم من فقده ، كيف يمكن أن تفهم هذا ؟
ـ مع ذلك انت فى حاجة الى صدمة تشحذ همتك . ان اهلنا كانوا رجالا ذوى جسارة واقدام . وانت تعرف هذا. انهم لم يتركوا انفسهم تتآكل حتى الموت . والزمن الآن فى تغير مستمر . وهناك فرص لم يكن اسلافنا يحلمون بمثلها . وهذة الفرص يقتنصها الاجانب عن بلادنا . ان الاجانب يأخذون عندنا الزمام . استيقظ ياايثان !
ـ وماذا عن الثلاجة ؟
ـ دعها تذهب اذا لم يكن من هذا بد .
ـ وماذا عن مارى والاولاد ؟
ـ انسهم الى حين . انهم سوف يحبونك اكثر اذاتسلقت خارجا من جحرك .انك لاتساعدهم بدوام قلقك عليهم وانشغالك بأمرهم.
ـ ومال مارى ؟
ـ اخسره اذا لم يكن من هذا بد ، لكن جازف به ، ومع التدقيق وحسن المشورة لن تتعرض لضياعه ، ان المجازفة لا تعنى الخسارة ، ان قومنا كانوا دائما من أهل المجازفة المحسوبة ولم يتعرضوا لخسران ، سوف اهزك يا ايثان من الأعماق ، انك تخيب بروحك هذه ذكرى الكابتن هاولى ، انت مدين للذكراه بشىء تعمله . يا للعجب ! انه وأبى كانا يمتلكان السفينة « بيل ـ آدير » معا ، وكانت من أمتن واجمل سفن صيد الحيتان ،

انفض عنك عفار الخمول واليأس يا ايثان ، واعمل شيئا لذكرى « بيل آدبر » .
ـ ان « بيل ـ آدبر » احترقت حتى خط الماء ياسيدى .
ـ أعرف هذا ، لكن هل ثنى هذا من عزمنا ؟ لا بأى حال .
ـ كانت السفينة مؤمنا عليها .
ـ بالطبع كانت كذلك .
ـ أما أنا فلم يكن مؤمنا على بشيء ، ولم أستطع سوى انقاذ هذا البيت لا أكثر .
ـ لابد لك أن تنسى هذا ، انك تحزن نفسك بشيء فات وانقضى، لابد أن تستجمع بعض الشجاعة ، والجرأة ، ولهذا السبب قلت ان عليك ان تستثمر مال مارى ، انني أحاول مساعدتك يا ايثان.
ـ شكرا لك ياسيدى .
ـ سوف ننزع عنك هذه « المريلة» ، انت مدين بهذا للكابتن هاولى ، انه ما كان يصدق شيئا كهذا .
ـ أظن ذلك ياسيدى .
ـ هذا هو الكلام المطلوب ، سوف ننزع عنك هذه «المريلة» .
ـ لو لم تكن مارى والأولاد ...
ـ انسهم كما قلت لك من أجل صالحهم ، هناك مشروعات هامة سوف تتم فى بلدتنا « نيو بايتاون » هذه ، يمكنك أن تكون جزءا منها .
ـ شكرا لك ياسيدى .
ـ كل ما أطلب هو أن تدع لى فرصة للتفكير فى الأمر .
ـ قال لى مستر مورفى انه سوف يواصل العمل عندما تغلق البنك وقت الظهر ، وسوف أجهز له بعض الشطائر ، هل تحب ان أجهز لك مثلها ؟
ـ لا شكرا ، ان مورفى رجل كفء ، ولهذا فانني اترك له كل العمل ، هناك أرض عقارية أحب ان أبحث أمرها فى مكتب السجلات العقارية ، وربما يكون لك نصيب فيها ، سوف نتكلم فى هذا قريبا ، الى اللقاء .
وأسرع باجتياز الحارة ودلف الى باب البنك الأمامى وايثان ينظر فى اثره مبتسما .
وأسرع باتمام الكنس اذ بدأ الناس ينتشرون ، وان لم يحضر

اليه سوى قليل من « الزبائن » معظمهم من الأطفال لشراء خبز او لبن او بن .
ثم اقبلت مارجى الملقبة بالصـــيادة الشـــابة ، وكانت مرتدية « سويتر » أبرز صدرها و « جونلة » محكمة مشـــــدودة حول خاصرتيها ، وان كانت عيناها العسليتان هما اللتان راى فيهما ايثان ما لايمكن أن تراه زوجته مما لايكون ماثلا فى حضور الزوجات ، كانت صيادة حقا ، وكانت أقرب الى حيوان مفترس ضار .
ثم كانت نبراتها الناعمة المتحفزة هى التى اكملت الصورة .
قالت له : صباح الخير يا «ايث» ، ياله من يوم بديع للرحلات الخلوية !
ــ صباح الخير ، اراهن انك محتاجة الى بن .
ــ خانك الذكاء هذه المرة ، جئت لأقول لك ان مندوب محلات « ب . ب . د » سوف يحضر لمقابلتك .
ــ اننا نشترى سلعنا من محلات « وايلانلز » .
ــ على كل حال قد أبلغتك عن مستر « باجارز » هذا . هل يمكن ان تعطينى كوب ماء ؟ سأتناول قرصين من الأقراص الفوارة.
فذهب ايثان الى المخزن وجاء بكوب المـاء ، فوضعت فيه ثلاثة اقراص فوارة وانتظرت حتى ذابت ثم شربتها ، فقال لها :
ــ سمعت انك سوف تقرئين الطالع لمـارى اليوم .
ــ يا الهى ! اننى نسيت ، بامكانى اذا مارست هـــذه المهنـــة ان اجمع ثروة .
ــ ان مارى تعشق هذه العملية ، هل انت بارعة فيها ؟
ــ لابراعة هناك ، ما عليك الا أن تدع الناس ــ خصوصـــا النساء ــ يتكلمون عن انفسهم ، ثم تكرر لهم الـكلام ، فيتوهمون انك تعرف الغيب ، أما الرجال فأمرهم يحيرنى ، لمـــاذا لا تعلمنى احوال الرجال يا ايثان ؟
ــ انت تعرفين عنهم ما فيه الـكفاية ، وربما اكثر من الكفاية .
ــ آه ، اراك تسرف فى ظنونك .
ــ هل تحبين أن ابدأ الآن ؟
ــ ربما يكون الأفضل مساء .
ــ حسنا ، سنكون جماعة ، مارى وانت والأولاد ، وموضـــوع التعليم هو الرجال : نقط الضعف فيهم ، ومواطن الغباوة ، وكيفية تسخيرهم واستخدامهم .

فتجاهلت مارجي لهجته قائلة :
ـ الا تشتغل قط مساء ـ حسابات آخر الشهر مثلا ؟
ـ بالطبع ، اننى آخذ الأوراق الى المنزل .
فابتسمت قائلة :
ـ هل تعرف ماسوف افعله؟ سوف أقرا طالعا هائلا هذا الصباح، وسوف تكون شخصا عظيم الشأن ، وكل شيء تلمسه سوف يتحول الى ذهب ـ سوف تكون زعيما بين الرجال .
وتحولت مسرعة الى الباب وأضافت باسمة :
ـ اننى أتحداك ان تكذب تنبؤاتي ... الى اللقاء يا بطل !
ولكنه لم يفته أن يستشف في رنين عقبى حذائها على الرصيف علائم الغضب .
وما أن حلت الساعة العاشرة حتى تغير كل شيء ، فقد فتحت أبواب البنك الزجاجية وتدفق الناس يغترفون النقود ويجيئون بها الى محل ماروللو لشراء مختلف الأطعمة ولوازم عيد الفصح. وظل ايثان غارقا فى العمل حتى دقت ساعة المطافىء فى برج البلدية معلنة الظهر ، فأغلق أبواب المحل وانزل الستائر الخضراء حتى شملت المكان عتمة لم يبددها سوى ضوء الثلاجة الأزرق القاتم.
وما كاد يفرغ من اعداد الشطائر التى أوصى بها جومورفى صراف البنك حتى سمع صرير مفتاح فى قفل الباب الأمامى ، ودخل ماروللو بهيكله الضخم كهيكل الدب وفى صدره المنتفخ حتى بدت ذراعاه قصيرتين بالنسبة الى جسده ، وكانت قبعته مائلة عن رأسه الى الخلف حتى بدا شعره المنتصب الأشيب مثل قلنسوة ، وكانت عيناه نديتين ناعستين تشفان عن المكر ، وبدت أسنانه الأمامية المكسوة بالذهب ذات بريق فى الضوء المحدود ، وقال وقد شبك ابهاميه السمينتين فى طيات بنطلونه تحت بطنه ردا على تحية ايثان :
ـ حسنا يافتى ، أراك أسرعت باغلاق المحل .
ـ البلدة كلها أغلقت ، حسبت انك ذهبت لحضور القداس . هل هناك ما يمكن ان أقوم به ؟
فرفع الرجل ذراعيه القصيرتين السمينتين وحركهما قائلا :
ـ زاد الألم فى ذراعى يافتى ، هو الروماتزم .
ـ الا يمكن عمل شيء ؟
ـ اننى افعل كل شيء ـ « كمادات » ساخنة ، زيت القرش ، اقراص الدواء ـ لكن الألم لايزال موجودا ، أحسنت باغلاق المحل،

هذه فرصة للكلام بيني وبينك يافتى .
ـ هل هناك اى تقصير ؟
ـ تقصير ؟ واين يكون التقصير ؟
ـ حسنا ، اذا انتظرت دقيقة فانني ساذهب بهذه الشطائر الى البنك ، حيث طلبها مستر مورفى .
ـ انت فتى همام ، انك تقوم بالخدمة أيضا ، وهذا شيء جميل.
وعندما رجع ايثان بعد تسليم الشطائر وجد مارو للو يحدق فى وعاء للقمامة ، وما لبث أن تناول بعض أوراق الخرشوف الملقاة فى الوعاء قائلا :
ـ انك تنزع قشورا كثيرة .
ـ الغرض جعل الخرشوف يبدو جذابا .
ـ الخرشوف يباع بالوزن ، وأنت بهذا ترمي النقود فى القمامة. انني أعرف يونانيا حاذقا له عشرون مطعما يقول ان سر المهنة فى مراقبة أوعية القمامة ، ان ما تلقيه كنفاية تخسره كمبيعات ، انه شخص حاذق فعلا .
فقال ايثان : مضبوط يامستر مارو للو .
ـ وهل ترش الخضر بالماء كما قلت لك ؟
ـ بالتأكيد .
فرفع صاحب المحل خسة قائلا :
ـ هـــذه تبدو جافة .
ـ يا مغيث يا مارو للو ! لايمكن أن تتشبع بالماء اكثر من هذا ، الماء يكاد يبلغ ثلث وزنها !
ـ الماء يجعلها طرية ، طازجة ، هل تظن انني اجهل اصول العملية ؟ انني بدأت بعربة يد ، واكتسبت الخبرة ، لابد أن تتعلم اسرار المهنة يافتى ، والا افلست ،والآن ما حكاية اللحوم ؟ اراك تشترى باسعار عالية .
ـ اننا نعلن عن تقديم لحوم ممتازة .
ـ وارى أيضا « بواقى » لحوم مستغنى عنها فى الثلاجة .
ـ هى شحوم وزوائد .
ـ لاباس بهذا اذا تم الوزن للجمهور قبل قطع الشحوم والزوائد. لابد أن تتعلم يافتى .
شعر ايثان بالغضب يتملكه فجأة ، حتى قال :
ـ انا لست نحاتا يا مارو للو !

ـ المسألة مسألة عمل ، والعمل الناجح هو الذى يربح ، هل تظن ان مستر بيكر يوزع اموال البنك مجانا ؟

وعندئذ غلت مراجل الغضب فى صـــدر ايثان حتى لم يتمالك ان راح يقول صائحا :

ـ اسمع ياسيدنا ، ان عائلة هاولى مقيمة هنا منذ اكثر من مائتى سنة ، وانت أجنبى ، ولا يمكن أن تفهم حياتنا ، وعلى مدار السنين كنا نتعايش مع مواطنينا ونخالقهم بالخلق الطيب ، والمعاملة الكريمة ، واذا كنت تظن ان قدومك من جزيرة صقلية يمكن أن يغير شيئا من هذا فانت واهم ، وان كنت تريد وظيفتى هنا فانا متنازل عنها منذ الآن ، ولا تقل لى «يافتى» ، والا لطمت انفك !

فقال مارولو وقد عادت ثناياه المذهبة الى الابتسام :

ـ لاباس ، لاباس ، لا تفقد صوابك ، اننى أحاول فقط أن افيدك بنصائحى ، انا لا أجيد الانجليزية كما يجب ، ولـكن يمكننى ان أقول ان هويتى يرجع تاريخها الى الفى أو ثلاثة آلاف سنة . ان اسم مارولو اسم عريق أصله من روما ، ما هى قيمة مائتى سنة بالنسبة لهذا ؟

ـ انت لست من أهل هذه البلاد .

ـ ومنذ مائتى سنة لم تكن انت من أهلها أيضا .

لم يلبث ايثان ان انحاز الى الهدوء وقد ذهب عنه الغضب ، فقال بلهجة أقل حدة :

ـ ما كان يصح أن تتكلم بلهجة الأسياد .

ـ المسألة مسألة عمل ، وانني أعلمك اسرار العمل ، ثم ان سنى ثمانية وستون عاما ، وزوجتى توفيت ، وآلام الروماتزم تحاصرنى، واذا لم تفهم أسرار العمل تعرضت للافلاس .

ـ لا لزوم لتوبيخى لأننى أفلست مرة .

ـ انت مخطىء ، اننى فقط احاول أن أعلمك أصول العمل الناجح حتى لا تفلس مرة أخرى .

فقال ايثان وقد عاد الى الابتسام :

ـ حسنا، وما الذى تريد أن تعلمنى من اصول العمل مما لا اعرفه؟

ـ العمل يعنى المال ، والمـال لايعرف المجاملة ، المـال لا يطلب الصداقة ولـكن يطلب المزيد .

ـ هذا كلام فارغ يا مارولو ، اننى أعرف الكثيرين من الأصدقاء الطيبين ، وهم رجال أعمال شرفاء .

ـ هذا فقط بعيدا عن الممارسة الفعلية للأعمال ، والأيام وحدها سوف تكشف لك عن ذلك ، وعندما تكشف لك عنه سيكون ذلك بعد فوات الأوان ، اننى أعلمك دروســا حقيقية كما لو كنت فى مدرسة . الى اللقاء يافتى .

وثنى ماروللو ذراعيه وأسرع خارجا من الباب الأمامى وصفقه خلفه ، حتى شعر ايثان بوحدة ووحشة .

ولم يكد يفيق حتى سمع طرقا حادا على الباب الأمامى، فأزاح الستار جانبا وقال .

ـ المحل مغلق حتى الساعة الثالثة .

ولـكن الغريب دخل ، كان شابا مليئا فارعا أنيق الملابس مصقول الشعر زئبقى النظرات بادى البشاشة ، وقال من فوره :

ـ آسف لازعاجك ، كان لابد لى من مقــابلتك على انفراد ، حسبت ان الرجل العجوز لن يخرج أبدا .

ـ مارو للو ؟

ـ نعم ، كنت واقفا عند الشارع أنتظر ، اننى قابلت صديقا لك فى الليلة الفائتة ، مسز يونج هانت ، مارجى .

ـ آه !

ـ انت شاب لطيف ، انها امتدحتك كثيرا ، وهــذا ماجعلنى اعتقــد ... اســمى بيجارز ، وانا المنــدوب المتجول لشركة « ب . ب . د . » للمواد الغذائية .

ـ اننا نتعامل مع شركة « وايلاندز » .

ـ أعرف هذا ، وهو سبب حضورى الى هنا ، نحن فى هــذه المنطقة منذ مدة قريبة ، ونريد توسيع معاملاتنا ، ولابد أن نقدم بعض التنازلات لـكى نتمكن من تثبيت أقدامنا ، وسوف تستفيد اذا انتهزت هذه الفرصة .

ـ عليك أن تقابل مارو للو .

فقال الرجل بصوت ودى خفيض :

ـ انت الذى تباشر طلبات الشراء ؟

ـ نعم . ان مارو للو مريض بالروماتزم ، وفضلا عن ذلك فله مصالح أخرى .

ـ المهم انك انت الذى يباشر طلبات الشراء ، بامكانى منحك خصم ٥ فى المــائة .

ـ مارو للو قد يقبل هذا اذا كانت البضاعة من نفس الأصناف.

ـ انت لم تفهمنى . لا اريد ماروللو . ان هذه الـ ٥ فى المـائة ستكون نقداً ـ لاشيكات ، ولا سجلات ، ولا متاعب مع رجـال الضرائب ، مجرد بنكنوت جديد من يدى الى يدك ومن يدك الى جيبك .
ـ حسنا ، وماذا اذا أخذت الـ ٥ فى المائة وحولتها الى ماروللو؟
ـ اظنك لا تعرف هؤلاء الناس كما اعرفهم . اذا حولت اليه القيمة ، فسوف يتساءل فى نفسه عن البقية التىحجزتها لنفسك. هذا شعور طبيعى .
فقال ايثان بصوت خفيض :
ـ هل تريد منى ان اغش الرجل الذى اعمل عنده ؟
ـ واين الغش هنا ؟ انه لن يخسر شيئا ، وسوف تجنى انت ربحا ، كل انسان له حق فى أن يجنى ربحا ، فكر جيدا يابنى . فكر ان كان يمكنك تحويل طلبات الشراء الى جانبنا . سوف أعود لزيارتك بعد عودتى الى المنطقة . اننى أقوم بهـذه الدورة كل اسبوعين . هاك بطاقتى .
ظلت يد ايثانالىجانبه. فوضع بيجارزالبطاقة فوق الثلاجةقائلا:
ـ واليك تذكارا صغيرا نقدمه لأصدقائنا الجدد .
واخرج من جيبه محفظة جلدية انيقة ووضعها الى جانب البطاقة قائلا :
ـ هدية لطيفة تنفع لرخصة القيادة ، والبطاقات .
لم يرد ايثان ، فمضى بيجارز يقول :
ـ سوف أعود بعد اسبوعين . عندى موعد مع مارجى . فكر جيدا . انت شاب ذكى . سأذهب الآن .
وفجاة اقترب من ايثان وهمس فى أذنه :
ـ لا تكن ابله . كل انسان يفعل هذا .
وخرج مسرعا واغلق الباب خلفه بهدوء .
وساد سكون لم يتخلله سوى صوت محرك الثلاجة . ولم يلبث ايثان ان تلفت الى « شهوده » المتراصة على الأرفف من مختلف المعلبات قائلا :
ـ كنت احسبكم اصدقائى ! لم ترتفع يد بينكم للدفاع عنى !
واستدار على صوت طرق متواصل على باب الحارة ، فتقدم اليه على عجل وهو يغمغم لنفسه :
ـ « زبائن » اكثر مما لو كان المحل مفتـوحا .

دخل عليه جو مورفى ممسكا بحلقه قائلا :
ــ باللهعليك الا ماأغثتنى بزجاجةكوكا ، انني آكاد اموت عطشا.
لماذا هذا الاظلام ؟ أم ان نظرى مسه الضعف ؟
ــ اننى انزلت الستائر للتخلص من رجال البنوك العطشى !
وقاده عائدا الى الثلاجة حيث اخرج زجاجتين مثلجتين جــدا قائلا :
ــ أظن اننى سآخذ واحدة لنفسى .
واستند جو مورفى الى الثلاجة ولم يتكلم الا بعد أن أفرغ نصف الزجاجة فى جوفه ، وبعدها هتف قائلا :
ــ ما هذا ؟ من اين لك هذه المحفظة الثمينة ؟
ــ هى هدية من مندوب شركة « ب. ب. د. » للمواد الغذائية. انه يحاول أن يضمنا الى نطاق عملائه .
ــ انها هدية ثمينة فى الواقع يابنى ، وارى حرفى اسمك منقوشين عليها بالذهب أيضا !..
ــ صحيح ؟
ــ تعنى انك لا تعرف ؟
ــ انه تركها منذ دقيقة لا اكثر .
فتح جو المحفظة ، واذا أصابعه تخرج منها ورقة بنكنوتجديدة فئة عشرين دولارا ، فقال :
ــ كنت أعرف انهم سوف « يزحفون » الى هذه المنطقة ، لكن لم أعرف انهم سيصلون « بالدبابات » . هذا تذكار يجعل الانسان يتذكر فعلا .
ــ هل كانت هذه الورقة فى المحفظة ؟ ..
ــ وهل تظن اننى زرعتها فيها ؟
ــ جو . اريد أن اتــكلم معك . ان ذلك الشخص عرض على ٥ فى المائة عن كل طلب شراء يكون من نصيبهم .
ــ مرحى ! اليسر والرخاء أخيرا ! يجب أن توزع الــكوكا مجانا. هذا يومك !
ــ لعلك لا تقصد ان على أن آخذها ...
ــ ولم لا ، اذا كانوا لايضيفونها الى السعر ؟ من الخاسر ؟
ــ طلب مني الا اخبر مارولو والا ظن اننى احصل على اكثر من هذه القيمة .

ــ سيظن ، هذا فعلا . ماذا دهاك ياهاولى ؟ هل جننت ؟ هل تفكر فى طرد هذه النعمة ؟
ــ اننى قاومت نفسى لئلا اقذف به الى الشارع .
ــ لاشك انك تهذى !
ــ قال لى ان كل انسان يفعل هـــذا .
ــ وليس كل انسان يمكنه الحصول على مثلهـــا . انت من المحظوظين .
ــ ليس هذا من الامانة .
ــ وكيف لا ؟ من المضرور ؟ ليس هذا ضد القانون .
ــ تعنى انك كنت تأخذها ؟
ــ آخذها ؟ ! لو كنت مكانك لركعت مستجديا . فى مهنتى ارى جميع المنافذ مسدودة . كل خطوة تخطوها فى البنك معدودة ضد القـــانون ــ اللهم الا اذا كنت رئيسا . ماذا اصابك يابنى ؟ لو كنت تأخذ الهدية من الفيو ماروللو لقلت لك ان هـــذا مخالف للاستقامة ، لكنك لا تفعل هذا . انك تؤدى لهم خـــدمة ، وهم يقدمون لك خدمة مماثلة ــ فى شكل ورقة خضراء جميلة !.. لاتكن ابله . لك زوجة واولاد تفكر فيهم . ان تربية الأولاد لن تـــكون عملية رخيصة .
ــ ليتك تذهب عنى الآن .
فوضع جو مورفى الزجاجة على المنصة بعنف قائلا ببرود :
ــ مستر هاولى ــ لا ، مستر ايثان آلين هاولى . لو كنت تظن اننى يمكن ان افعل شيئا مخالفا للأمانة او اقترح عليك شيئا كهذا فلتذهب الى الجحيم ! ..
وسار جو عائدا ادراجه . فقال ايثان :
ــ لم اقصد هذا . اقسم لك ان هذا لم يكن قصدى ياجو . المسألة هى اننى تلقيت اليوم اكثر من صدمة . هذا عيد شنيع !
ولكن جو مورفى انسحب من الباب الخلفى وجذبه خلفه بهدوء .
ولم يلبث ايثان ان رفع الستائر وفتح المحل من جديد ، لـــكن المعاملات لم تكن كثيرة فى هذه الفترة ، وخلت الشوارع او كادت من الناس ، وقبيل موعد الاغلاق لم يتردد عليه احد . وبعد ان اغلق المحل وهم بالابتعاد تذكر قائمة الاصناف المطلوبة للمنزل ، فاضطر الى العودة وجمع المواد فى كيسين كبيرين واغلق المحل من جديد وقد خامرته رغبة لـــكى يمم شطر خليج الميناء ويراقب الأمواج

الداكنة ويشم رائحة البحر ويتحدث الى طائر «نورس» يراه واقفا على عائمة ومنقاره فى الهواء ، متأثرا فى هذا بقصيدة كتبتها سيدة منذ عهد بعيد عن أحاسيسها حيال هذا الطائر الفريد . بيد ان ثقل اكياس لوازم العيد ثناه عن رغبته تلك ، وهكذا سار متثاقلا فى شارع « هاى » ومنه الى شارع « ايلم » متجها الى بيت هاولى العتيق .

الفصل الثاني

تركت مارى الموقد واخذت من زوجها احد الكيسين الكبيرين قـــــائلة :

ـ عندي اخبار كثيرة لك . لا يمكنني الانتظار .

فقبلها ، ولما احست بتوتر شفتيه قالت له :

ـ ماذا هناك ؟

ـ اشعر ببعض التعب .

ـ لكنك اغلقت المحل ثلاث ساعات .

ـ كانت عندى اعمال كثيرة .

ـ ارجو الا تكون مكتئبا .

ـ كان يوما فيه كآبة .

ـ بل كان يوما رائعا . انتظر الى ان تسمع مني .

ـ اين الأولاد ؟

ـ فوق مع الراديو . عندهم ايضا اخبار لك .

ـ مشاكل ؟

ـ لماذا تقول ذلك ؟

ـ لا اعرف .

وفى هذه اللحظة هرع الآن وايلين يهبطان السلالم متواليين واسرعا الى المطبخ يرحبان بعودته . وقال الصبى :

ـ بابا . عندك فى المحل علبة الحبوب التى لها غطاء على شكل قناع فار . اريد واحدة .

وقالت ايلين :

ـ اذا ارسلت غطاء العلبة مع عشرة سنتات فانك تحصل على جهاز التكلم البطنى مع الارشادات الخاصة به . اننا سمعنا هذا الآن فى الراديو .

فقالت مارى لابنها :

ـ قل لابيك ما الذى ستفعله ؟

ـ اننا سنشترك فى مسابقة « احب امريكا » ، وجائزتها السفر

الى واشنطن ومقابلة الرئيس – مع الوالدين – الى جانب جوائز اخرى .

فقال ايثان :

– بديع . ما هي المسابقة ؟ ماذا يجب أن تفعل ؟

فهتفت ايلين قائلة :

– يجب كتابة موضوع عنوانه : « لماذا تحب أمريكا » . وجميع الفائزين سوف يظهرون فى التليفزيون .

وقال آلان :

– ثم رحلة واشنطن ، والفندق ، والملاهى ، ومقابلة الرئيس ، والألعاب النارية . ما رأيك فى هـذا كله ؟

– وما رأيك فى أعمـال المدرسـة ؟

– سيكون هذا فى الصيف. ستعلن أسماء الفائزين فى عيد ٤ يوليو .

– فى هذه الحالة لابأس، هل تحبان أمريكا فعلا، أم تحبان الجوائز؟

فقالت مارى :

– آه يا بابا !.. لا تفسد عليهما هذه المتعة !

وقال آلان : قل لى يابابا. اين يمكن أن نبحث عن هذا الموضوع؟

– تبحثان عنه ؟ !

– نعم . هذا ما قاله لى بعض الأولاد ...

– ان جدكم الأكبر كانت عنده كتب عظيمة . وهى موجودة فى غرفة السطح .

– مثل ماذا ؟ ..

– مثل خطب لنكولن ، وكتب دانييل ويبستر وهنرى كلاى . ثم هناك مارك تواين أيضا . كل هذه الكتب والمراجع موجودة فى غرفة السطح .

– ربما أمكنك مساعدتنا فى كتابة الموضوع .

– فى هذه الحالة لن يكون الموضوع من الشائك .

– على كل حال لا تنس احضار علبة الحبوب ذات القناع .

– سأحاول .

– هل يمكن أن تذهب الى السينما ؟

فقالت مارى :

– ظننت انكما ستقومان بتلوين البيض لعيـد الفصح . اننى أغليه الآن . بامكانكم بعد الغداء أخـذه الى الباب لتجفيفه فى الشمس يا ماما .

ـ هل يمكن يا ماما أن نصعد الى غرفة السطح ونرى الكتب؟
ـ اذا اطفأتم النور فيما بعد . فى المرة السابقة ظل النور مضاء لمدة اسبوع . انك انت الذى تركت النور هكذا يا ايثان .
وعندما ذهب الصبيان قالت مارى :
ـ الست مسرورا باشتراكهما فى المسابقة ؟
ـ بالتأكيد ، اذا فعلا كما يجب .
ـ انني لا اطيق الانتظار لابلاغك ـ فان مارجى قرأت طالعى اليوم ثلاث مرات ، لانها قالت انها لم تشهد من قبل شيئا كهذا ثلاث مرات !
ـ يا الهى ! اسمعى يا مارى . اريد ان احذرك .
ـ اسمعنى اولا . انها قرأت الأوراق وكانت كلها حولك . سوف تكون واحدا من أهم الرجال فى هذه البلدة . ولن يطول هذا ايضا . بل سيحدث عاجلا . كل ورقة قلبتها بينت نقودا ونقودا اكثر . سوف تكون رجلا غنيا .
ـ دعينى أحذرك ياحبيبتى .
ـ سوف تقوم بعملية استثمار .
ـ بماذا ؟
ـ حسنا . كنت افكر فى المال الذى ورثته عن اخى .
فهتف قائلا :
ـ لا . لايمكن أن امسه . هذا مالك . وسيظل مالك .
ـ ان مارجى لم تشر الى هذا . سوف تستثمر فى شهر يوليو ، وكل خطوة سوف تتلوها خطوة اخرى . ان مارجى قالت لى بالحرف الواحد : « ان حظك هو ايثان . سوف يصبح رجلا غنيا جدا ، بل ربما اهم رجل فى هذه البلدة » ...
ـ لعنة الله عليها ! ليس لها حق فى هذا .
ـ انها صديقة مخلصة . لا أريد أن نتخاصم على مسمع من الأولاد . ان مارجى هى افضل صديقة لى . انا اعرف انك لاتحبها . وفى ظنى انك غيور من اصدقائى . اننى عشت ساعات سعيدة بعد ظهر اليوم ، وانت تريد أن تفسدها على . ليس هذا شيئا لطيفا .
فقال ايثان :
ـ قد يكون ما فعلته مجرد خبث . انها امرأة بلا رجل ولاعمل .
فراحت مارى تقول بازدراء :

ـ تكلم عن الخبث دون أن تعرف حقيقة مارجي ولا الظروف التى تمر بها . هناك رجال في هذه البلدة يطاردونها طول الوقت. رجال لهم شأن ، رجال متزوجون ، يهمسون ويغرون !.. واحيانا لا تعرف مارجي الي أين تتجه هربا منهم . وهـــذا هو ســبب حاجتها الي ، كصـــديقة من بنات جنســـها . آه ، كم حدثتني بأشياء لا تخطر على البال ، عن رجال لا تصدق امرهم . بل ان بعضهم يتظاهر بأنهم لايحبونها علنـــا ، ثم يتسللون الي بيتها أو يتصلون بها تليفونيا للاقاتهم. رجال منافقون ، يدعون الى الفضيلة والاخلاق ثم يفعلون هذا . وبعد ذلك تكلمنى من الخبث !

ـ هل ذكرت لك من هم ؟

ـ لا . وهذا وحده دليل ضدهم . ان مارجي لا تريد أن تسيء الى أحد حتى ولو اساءوا اليها . لـكنها قالت ان بينهم واحـــدا لايمكن ان أعتقد فيه هذا . قالت ان شعر رأسي قـــد يشيب اذا عرفت بأمره .

فتنفس ايثان من أعماق رئتيه ، بينما قالت ماري :

ـ ترى من يمكن أن يكون ؟ ان طريقة كلامها عنه جعلتنيأعتقد كما لو كان شخصا نعرفه تماما ولا يمكن ان نصدق أمره .

فقال ايثان بصوت خافت :

ـ أظن انني أعرف .

ـ انت تعرف ؟ من هو ؟

ـ انا .

فغرت فاها ، وقالت :

ـ آه ، يالك من ماكر ! لو لم اكن على حذر منك لأوقعتني كل مرة في الفخ ! على كل حال هذا الهزل خير من الـكآبة .

ـ يا للعجب ! رجل يعترف بالتورط في الاثم مع أصدق صديقة لزوجته ، ويقابل بالاستخفاف !

ـ هذا كلام لا يصح أن يصـــدر منك .

ـ ربما كان يجدر بهذا الرجل أن يلجأ الى الانكار . وفي هـــذه الحالة كان يمكن أن تحترمه الزوجة وتـكرمه ، مع الشك طبعا . ياحبيبتي ـ اقسم لك بكل ما هو مقدس انني لم يصـــدر مني سواء بالقول او الفعل اى شيء خادش للشرف مع مارجي . فهل تصدقين بعد هذا انني ارتـكبت اى اثم ؟

ـ انني احب المزاح ، لكن هذا ليس شيئا يمزح الانسان فيه .

ــ سأحاول مرة اخرى يازوجتى الجميلة . هناك فعلا امراة الحرف الأول من اسمها «م» قد طوقتنى بالشباك ، لأسباب تعرفها وحدها . وانا فى خطر داهم من الوقوع فى احدى شباكها .

ــ لماذا لا تفكر فى حظك ؟ ان الأوراق قالت شهر يوليو ، وقالت هذا ثلاث مرات . اننى رايت هذا بعينى راسى . سوف تنال مالا، ومالا كثيرا . فكر فى هذا فقط .

ــ هل تحبين المال ، والمال الكثير يانور عينى ؟

ــ أحب المال ؟ ما قصدك ؟

ــ هل تحبين المال الى الدرجة التى تبرر فى نظرك كل انواع التنجيم والعرافة والسحر والخزعبلات الخ ؟ ..

ــ تسألنى ان كنت أحب المال ؟ واقول لك اننى لا احب المال ، ولكننى لا أحب ايضا انشغال البال والهموم ، اننىاحب ان اكون فى وضع يسمح لى برفع راسى فى هذه البلدة . اننى لا احب ان يشعر أولادى بالخجل والمذلة لانهم لايستطيعون ان يلبسوا كما يلبس غيرهممن الابناء .

ــ وهل المال هو الذى يرفع راسك ؟

ــ انه يزيل اثر السخرية عن وجوه جدودك المقدسين !

ــ لا احد يسخر من عائلة هاولى .

ــ هذا ما تظنه . ولكن فقط لا تراه .

ــ ربما لاننى لا اتسقط ولا أفتش .

ــ هل مفاخرك العائلية سلاح تشهره فى وجهى ؟

ــ لا ياحبيبتى . انها لم تعد سلاحا نافعا .

ــ الحمد لله انك اكتشفت هذا . فى هذه البلدة او فى اية بلدة اخرى فان بائع محل البقالة سليل اسرة هاولى هو مجرد بائع محل بقالة .

ــ هل تلومينى لفشلى ؟

ــ لا . بالطبع لا الومك . انما الومك فقط لجلوسك قانعا تتمرغ فى المجد القديم . بامكانك أن تخرج من هذه الوحدة اذا تخلصت من افكارك العتيقة . كل انسان يسخر منك . ان سليل الحسب والنسب المعدم انسان تافه .

لكن هذه الكلمة دوت فى سمعهاكالقنبلة ، حتى سكتت خجلة . فقال ايثان :

ــ انا آسف . لقد علمتنى شيئا ، بل ربما أشياء ــ الواقع ،

والممكن ، والمعقول . لقد عرفت الآن اين أجد المال لكى ابدأ اليسر والغنى .
ـ اين ؟
ـ سوف اسرق بنكا .
وفى هذه اللحظة انبعث رنين المنبه المتصل بالموقد ، فقالت مارى:
ـ اذهب وناد الأولاد . ان اناء تلوين البيض جاهز. وقل لهم ان يطفئوا النور .
ووقفت تنصت الى وقع خطواته وهو يبتعد .

الفصل الثالث

شد ما احسد زوجتي ماري على سرعة استسلامها للنوم . فانها لا تكاد تستلقي في الفراش حتى تتكوم على نفسها وتتنهد مرة واحدة ثم تغمض عينيها وتنفرج شفتاها عن ابتسامة هانئة ، وفي اللحظة التالية تسبح في عالم الأحلام .

ان ماري تعشق النوم ، والنوم يفتح احضانه لها ترحيبا وحفاوة.

اما انا فانني أصارع النوم والنوم يصارعني حتى استحال الى معركة آبدة بيني وبينه . فاذا نمت كانت أحلامي هي متاعب النهار ومشاكله ، تتضخم وتتخذ أشكالا شتى أقرب الى اقزام تتراقص ، مرتدية قرون واقنعة حيوانات .

ومن عجب أن عيد الفصح يقترن عندي بالأحزان ، ولكنه كان هذا العام أسوأ . فاليوم حمل على مارولو حملة شعواء بدعوى تلقيني طبيعة العمل واسراره . وبعدها جاء من يقدم الى أول «رشوة» في حياتي . ثم هانذا امام مشكلة مارجي الملقبة «بالصيادة الشابة » . فهل هي مخلوق شرير ؟ وما غرضها مني ؟

وكم من ليلة أمضيتها مؤرقا ساهرا مسهدا وانا اسمع غطيط ماري الرقيق يملأ سمعي . انك اذا ذهبت تحدق في الظلام لا تلبث ان ترى بقعا حمراء تتراقص امام عينيك . وفي هذه الليلة لم اتمالك عندما زادت البقع الحمراء أمام عيني أن قررت ان انهض واخرج .

انني من الذين يؤمنون بأن الانسان يستطيع ان يحسن التفكير في مكان خاص يتخذه خلوة . ولهذا كان لي هذا المختلى ، وان كان التفكير عندي يقترن بالأحاسيس والتجارب والذكريات .

هكذا تسللت من الفراش بهدوء وهبطت الى الدور الأرضي حاملا ملابسي التي ارتديتها في المطبخ . ولكي لا تقلق ماري لغيابي اذا استيقظت فقد سطرت لها كلمة قلت فيها : « حبيبتي ـ شعرت بقلق ، فخرجت للقيام بجولة ، وساعود سريعا » .

ولما فتحت الباب الخلفي شعرت بالهواء قارسا منذرا بالصقيع ،

فاشتملت بمعطف ثقيل ووضعت فوق راسى واذنى قلنسوة بحار من الصوف . وفى هذه اللحظة دقت الساعة مؤذنة بالثالثة صباحا، ومعنى هذا اننى لبثت اراقب البقع الحمراء فى الظلام اربع ساعات منذ الحادية عشرة .

ان بلدتنا « نيو بايتاون » بلدة عريقة جميلة ، بل هى من اعرق وأجمل البلدان فى أمريكا كلها . كان مستوطنوها الاوائل واجدادى من أرباب البحر المغامرين الذين ضاقت بهم أوربا ، فجاءوا الى ساحل أمريكا الشمالى واستقروا به ، ومزجوا فى حياتهم ومعاشهم بين القرصنة والأنماط « البيوريتانية » . ولكن أبى الطيب القلب كان على نقيض هذه الخصائص ، وهكذا أضاع الأرض، والمال ، والمنزلة، والمستقبل ، والواقع انه ضيع كل ماراكمته أسرة هاولى خلال مئات السنين ، فيما عدا اسم الأسرة الذى كان وحده مناط اعتزازه . وكان أبى حريصا على تلقينى ماسماه « دروس الميراث العائلى » ، وهذا هو سبب معرفتى الوثيقة بتاريخ الأسرة وأمجادها . وربما كان أيضا سبب وجودى الآن كاتبا فى محل بقالة رجل من صقلية ، فى منطقة كانت كلها ملكا لأسرة هاولى .

تواردت فى ذهنى هذه الخواطر لمجرد اننى قلت ان بلدتنا عريقة جميلة . لقد جمعت مبانيها بين القديم والحديث ، خصوصا تلك المنازل المصرية التى أقامها أحفاد صيادى الحيتان فى شارع بورلوك وولنى والتى احتذوا انماطها متأثرين برحلاتهم البعيدة الى أقصى البحار والأقطار . ولكن بيت أسرة هاولى ظل فى شارع « ايلم » محتفظا بطابعه التاريخى العتيق ، الى جانب بيوت أسر بيكر وفيليبس والجار ــ وان كانت مارى لم تلبث بعد وفاة أبى أن شبعت من سماع تاريخ الأسرة المكرر المعاد ، فاقترحت على نقل مخلفات الأسرة الى غرفة السطح ، ولم أمانع فى هذا وأنا أعرف انها لم تكن من أبناء بلدتنا ولم تتقلب فى ذكرياتها ، اذ كانت من اصل ايرلندى ، وكان لقائى بها فى مدينة بوسطن وأنا ضابط برتبة الملازم أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، وظلت وفية على عهدها معى طيلة الحرب ، وبعد زواجنا كانت مثال الاحتمال والصبر أثناء السنوات التى تعرضت فيها للانتكاس والافلاس ، ثم طوال وجودى بائعا فى محل بقالة . ان مارى تحتمل وتصبر على الشدائد ، ولكننى اعتقد الآن انها تعبت من طول الاحتمال والمصابرة . ولهذا قد لايكون من المستغرب ان يتهاوى احتمالها فجاة وينهار صبرها على تلك الصورة التى

اسلفت .
ومهما يكن فانني تابعت سيرى فوق الأرض المكسوة بالصقيع المتلألىء كالماس تحت انعكاس ضوء المصابيح متجها الى الميناء القديم . وفى الطريق بعد تقاطع شارع بورلوك وهيكس قرب مصنع الدراجات ، وقع نظرى على آثار واضحة لا تخطئها عينى المدربة فوق الصقيع المصقول المتجمد : بصمات خطا دانى تيلور الواسعة المتثاقلة ، دانى سكير البلدة ، سليل الأسرة الكريمة العريقة ، المتعلم الفاشل ، المطرود من الأكاديمية البحرية ، وصديق العمر كله. لماذا لايستقيم دانى المنكود ؟ انه يقتل نفسه قتلا بادمانه الخمر . وياله من عار يلحق به وبأسرته اذ يستجدى ثمن الشراب استجداء. مما يعزى ان ابويه لم يبقيا على قيد الحياة لكى يقع نظرهما على بؤس حاله وسوء مآله .
ان دانى يمثل عندى جرحا داميا متجددا وحزنا مقيما لا يفتر وطالما حاولت مساعدته والأخذ بيده ، لكنه كان ولايزال يأبى على هذا باصرار . ان دانى بمثابة أخ لى ، فنحن متماثلان فى العمر والبنية . وأسرته عريقة مثل أسرة هاولى او اسرة بيكر وغيرهما . وفى صبانا لم تكن نفترق لحظة فى مجال المرح واللعب ، وفى ظنى اننا لو ذهبنا الى الكلية معا لما حدث هذا . فقد التحقت انا بجامعة هارفارد ، ونبغت فى اللغات ، والعلوم الانسانية ، واغترفت من مناهل معرفة لم تعد ذات جدوى لمن عمل بائعا فى محل بقالة ، كما تطور اليه أمرى ، لكننى طالما اشتهيت لو أن دانى لازمنى فى هذه الرحلة الثقافية الباهرة الممتعة . ولكن دانى كان يعشق البحر بطبعه . وقد التحق بالأكاديمية البحرية معززا بنفوذ ابيه ، بيد انه لم تنقض ثلاث سنوات حتى طرد منها ، مما عجل بنهاية أبويه ، ولم يبق منه الآن سوى ذلك الشبح السكير الذى يهيم على وجهه فى الليالى ، وحيدا ، يجر قدميه جرا . وعندما يستجديك نصف دولار ثمنا للشراب تناديك عيناه بالصفح عنه ، لأنه لايستطيع الصفح عن نفسه . وهو ينام فى كوخ حقير قرب مصنع السفن القديم الذى كان مملوكا لأجداده . وعندما تمعنت الآن فى آثار الأقدام لأرى ان كان عائدا الى مثواه أوخارجا منه رأيت الآثار تشير الى خروجه ، وقد التقى به فى أى مكان .
كانت وجهتى الميناء القديم كما قدمت . فيه كانت ترسو سفن صيد الحيتان منذ مئات السنين عائدة من رحلاتها السنوية عبر

البحار القطبية وبحار الصين محملة بانقي زيوت حيتـــان العنبر وأنفس السلع . اما الآن فلم يبق من هذه المعالم القديمة سوى الأطلال والذكريات ، واخصها تلك الصور الجميلة المشرقة التيطالما صورها لي جدي كابتن هاولي وانا بعد طفل صغير ، مستعينـــا بعصاه المشكلة من قرن ، حوت العنبر . ومن تلك الأطلال ذلك الكهف الصخري الصغير القابع على مسافة عشرة اقدام من مياه الشاطيء : وهو ملاذي الذي جعلته مختلي ، الوذ به بعيدا عن الأماكن المطروقة كلما حز بي أمر من الأمور . وفيه كنت امضي ساعات من ليلي قبل انخراطي في الخدمة العسكرية ، ومثلها قبل اقتراني بماري ، ومثلهـــا ليـــلة أن ولدت ايلين ولادة متعسرة . فيه كنت أجلس الساعات المتعاقبة اصـــيخ السمع الى الأمواج الصغيرة تلعق جدرانه الصخرية وأستشرف البحر الطليق من خلال مدخله .

كانت التغييرات الكبرى التي تطرأ على حياتي هي التي تأخذني الى هذا المختلى .

هكذا هبطت الآن الى هذا الكهف الصغير وجلست القرفصاء على أرضه وكأنني تمثال لبوذا .

ورب قائل يقول ان في هذا بلاهة ، لكنني لا ابالي . فأحيانا يكون من المتع الكبيرة في حياة الانسان أن يتعلق بالبـــلاهة أو السذاجة أو سمها ماشئت ، كالأطفال يلعبون التماثيل ويموتون من الضحك . بل ان التعلق بهذا الذي يعد من البلاهة والسذاجة يقتل الرتابة ويجلو صدأ النفس ويعين على شحذ الهمة من جديد. وكذلك كنت كلما مسني الضيق وكربني أمر من الأمور لعبت لعبة البلاهة والسذاجة هذه ، دفعا لعدوى الكرب ان تتسلل الى عزيمتي . وما اكثر هذه الكروب التي الفيتها الآن تجابهني . فان زوجتي ماري مثلا لاتزال سرا امامي لم انفذ بعد الى مغالقه . ولا اظن انها تعرف هذا المختلى لانني لم اخبر احدا بأمره . فهو مكان اتدبر فيه الأمور وادير فيه الفكر . فما من انسان يعرف غيره من بني البشر حق المعرفة ، وقصارى ما يبلغه هو أن يفترض انهم بشر مثله ..

وفيخلوتي الآن في هذا الملاذ بمنأى منغائلة الرياح والمد يتسللالي الكهف قاتما تحت سماء مظلمة ، لم اتمالك أن رحت اتساءل : ترى هل لكل الرجال مختلى كهذا ؟ او هم بحاجة الى مختلى ،

او يريدونه ولـكن لايجدونه ؟ أحيانا كنت لرى نظرة فى الأعين ، نظرة حيوان ملهوف ، كمن يحتاج الى مكان سرى هادىء تجد فيه النفوس المضطربة سكنا لها ، حيث يلم الانسان بذاته ويقيم كيانه. والواقع اننى أسمى كل ما يعرض فى المختلى « عملية تقييم » . ومن الناس من يسمونها « صلاة » ، ولعل الاثنين ان يكونا شيئا واحدا . ومهما يكن من خلاف فى الراى فانها عملية أجد فيها كل الجدوى ، بصرف النظر عن وجه الخطأ او الصواب .

كانت امامى امور كثيرة تقتضى التدبر واعمال الفكر ، وكانت تتواثب فى خاطرى ملوحة بأيديها تسترعى الاهتمام كأطفال فى مدرسة. منها موضوع مارى ، التى تركتها هانئة فى نومها وعلى شفتيها تلك الابتسامة الغامضة . كنت أرجو الا تستيقظ وتفتش عنى . لـكن اذا فعلت ، فهل تراها تسر الى بهذا ؟ ذلك ما أشك فيه . فى ظنى ان مارى ، على الرغم مما يبدو من انها تقول كل شيء ، لا تقول الا القليل . فهناك موضوع الثروة الذى لابد من تدبر أمره . فهل تريد مارى الثروة لنفسها أو تريدها لى ؟ وكونها ثروة موهومة من بنات افكار ماجى « الصيادة الشابة » لأسباب لا اعلمها لا يغير من الامر شيئا . فكثير من الثروات لا تعدو أن تكون وهما وسرابا . واى رجل متوسط الذكاء يمكنه اقتناء المال ان كان هذا ما يريده . واكثر ما يبتغى المال من أجله هو النساء او الملبس او الاعجاب ، وهى فى النهاية تنحرف به عن الجادة . واقطاب المال من امثال مورجان وروكفلر لم تزغ عقولهم ، فما بغيتهم فى ابسط وجوهها سوى تحصيل المال ، وقد حصلوه . اما ماذا يفعلون به بعد تحصيله فهذا شيء آخر . واغلب ظنى انهم قد لايسهم الردع من هـذا الغول الذى أطلقوه ، ولو استطاعوا التخلص منه لما ترددوا .

اما فى عرف مارى فالمـال معناه ستائر جديدة وتعليم مكفول لأطفالها ورفع الراس عاليا والافتخار بى بدلا من الخجل منى . لقد قالت هذا فى غضبتها امامى ، وهذا حق لا مراء فيه .

وفيما يتعلق بى ، هل اراني اريد المال ؟ الحق لا . ان شيئا فى داخلى كان يكره كوني بائعا فى محل بقالة . فى الجيش ارتقيت الى رتبة ملازم ، وان كنت اعرف ان الذى سما بى الى هذا من بين الصفوف هو الأسرة وما لها من روابط ، بيد اننى كنت مع ذلك مثال الضابط الصالح . لـكن لو اننى كنت حقا اريد التسلط

وفرض ارادتي على الآخرين والتلذذ بامتثالهم لأوامري ونواهي ، لبقيت في الجيش ، ولبلغت الآن مرتبة الكولونيل. لكنني لم ارد شيئا من هذا ، واستعجلت نفض يدي منه .

ثم هناك موضوع مارولو . لقد أصاب مارولو فيما قاله عن العمل ، وكونه الوسيلة لاقتناء المال . وقالها جو موريق كلمة صريحة لا عوج فيها ولا ابهام ، وقالها أيضا مستر بيكر، ومندوب المبيعات . كلهم قالوها صريحة ساخرة مباشرة . فلماذا تقززت نفسي وكان الاثر الذي تركه كلامهم كاثر البيض الفاسد في المذاق؟ هل أنا شديد الصلاح ، أو شديد الطيبة ، أو شديد الاستمساك بالحق ؟ لا اظن هذا . هل اراني شديد الاعتداد بنفسي ؟ لاباس هناك بعض هذا . هل انا فاتر الهمة خامد العزم ، ينكل عن الاقدام ويبتعد عن التورط ؟ في الحق هناك قدر كبير من الطيبة السلبية التي ليست شيئا سوى الخمول وايثار البعد عن المتاعب أو الارتباكات أو الجهود المبذولة .

وعندما بلغت هذا القدر من خواطري لاحت لي طوالع الفجرالتي تسبق انبلاج الضياء . كانت لدى القدرة على شمها ولمسها. واذن فلا مناص لي من ان اعود ادراجي سريعا . وهكذا غادرت المختلى دون طقوس ولا مراسم كما دخلته ، وسلكت طريقي الى شارع « هاي » وانا اكاد أجري . ومررت بالنصب التذكاري للجندي المجهول ثم بمبنى البريد قبلما صادفت داني تايلور واقفا في مدخل أحد البيوت وقد دس يديه في جيوبه ورفع ياقة معطفه ، وكان وجهه في الضوء البازغ مربدا مزرقا من تأثير البرد والاعتلال .

قال لي :

ــ ايثان . انا آسف لازعاجك . لابد لي من بعض الشراب انت تعرف انني ما كنت افعل هذا لولا اضطراري .

ــ أعرف . انني اصدقك .

واعطيته دولارا وانا اقول :

ــ أهذا يكفي ؟

كانت شفتاه ترتعشان كشفتي طفل يوشك على البكاء ، وقال :

ــ اشكرك يا ايثان . نعم . هذا يكفيني طول النهار، وربما طول الليل .

وبدا احسن حالا عندما فكر في هذا ... فقلت له :

ــ داني . لابد ان تكف عن هذا . هل تظن انني نسيت ؟ لقد

كنت اخي يادانى . ومازلت أخي . اننى على استعداد لـكى اعمل اى شيء فى الدنيا لمساعدتك .

مرى شيء من القلق فى خـــديه النـــاحلين . ونظر الى ورقة البنكنوت فى يده وكانما احتسى اول جرعة من الشراب ، ثم ما لبث ان رمانى بنظرة باردة قاسية قائلا :

ــ ليس لأحد دخل فى شئونى .

ــ اصغ الى يا دانى .

ــ ولأى غرض ؟ اننى اغنى منك واحسن حالا . هل تتذكر بيتنا الريفى ؟

ــ الذى احترق ؟ حيث كنا نلعب فى البدروم ؟

ــ اراك تتذكره جيدا . انه ملك لى .

ــ دانى . بامكانك أن تبيعه وتبدأ بداية جديدة .

ــ لن ابيعـــه . ان الحكومة تقتطع جزءا من الأرض كل سنة استيفاء للضرائب . لـكن المراعى الـكبيرة حوله لاتزال ملـكي .

ــ لمـــاذا لا تبيعها ؟

ــ لانها انا . هذه الأرض هى دانى تيلور . طالمـــا عشت فلن يجيئنى شخص رقيع يملى على ما أفعـــل ويتسلط على بدعوى مصلحتى . هل فهمت ؟

ــ اصغ يادانى ...

ــ لن أصغى . ان كنت تظن هـــذا الدولار يعطيك الحق فى ان تعظنى فخذه .

ــ احتفظ به .

ــ سأفعل . انت لا تعرف ما تتكلم عنه . انك لم تكن ابدا سكيرا . اننى لم اقل لك مرة كيف تلف اللحم المقدد . والآن اذا ذهبت فى طريقك فاننى سأطرق نافذة واطلب بعض «مطيرالعقول». ثم لا تنس اننى احسن منك حالا . انا لست بائسا .

وتحول عنى ودس رأسه فى زاوية المدخل المغلق مثل طفل يلغى الدنيا كلها من وجوده بمجرد تحويل نظره عنها . وقد ظل كذلك الى أن يئست وواصلت سيرى .

ولما وصلت الى بيتى صعدت السلالم الخلفية بهدوء واضأت نور المطبخ . فوجدت الكلمة التى تركتها لزوجتى بعيدة قليلا عن وسط المنضدة ، وان كنت اكاد اقسم اننى تركتها فى الوسط تماما .

وضعت اناء القهوة على النار وجلست انتظر نضجها ، فلم تكد

حتى جاءت ماري . ان حبيبتي تبدو كفتاة غضة عندما تستيقظ، حتى لتستبعد ان تكون اما لصبيين نامـــيين . وان بشرتها لتفوح منها رائحة زكية ، كرائحة عشب قطعته وشيكا ، وهي ازكى رائحة عرفتها .

قالت لي : ماذا تفعل في مثل هذا الوقت المبكر ؟

ــ لك حق في سؤالك . انني كنت مستيقظا معظم الليل. انظري الى حذائي المبتل قرب الباب .

ــ واين كنت ؟

ــ هناك قرب البحر كهف صــغير زحفت اليه يابطني ورحت اراقب الليل والنجوم . فرايت نجما يخرج من البحر ، ولمـا لم يكن صاحب فقد أعتبرته نجمنا . انني روضته ثم أعدته الى مكانه لـكي يسمن .

ــ ها قد عدت الي الهزل والبلاهة . اظن انك استيقظت فقط، وهذا ما ايقظني من نومي .

ــ ان لم تصدقيني فاسالي داني تيلور . انني اعطيته دولارا.

ــ ما كان يجب أن تفعل . سوف يسكر به .

ــ اعرف هـــذا . كانت هذة رغبة . اين ينام نجمنا يازهرتي العطرة ؟

ــ يسرني انك عدت الى الهزل والبلاهة من جديد . فانت بشع عندما تكتئب .انا آسف لما قلت لك أمس عن الحظ والمال . لا اريد ان تظن انني غير ســعيدة .

ــ لا تشغلي بالك . هذا مكتوب لنا في الطالع .

ــ ماذا ؟

ــ لست امزح . سوف احقق الطالع واجمع الثروة .

ــ انني اتعب في متابعة تفكيرك .

ــ هذه هي مشكلة قول الصدق . هل يمكن ان اضرب الأولاد « علقة » صغيرة للاحتفال بالعيد ؟ اعدك انني لن اكسر عظامهم .

ــ انا لم اغسل وجهي . جئت مسرعة لانني لم اتصور من كان يخبط في المطبخ !

وعندما ذهبت الي الحمام وضعت الورقة في جيبي وأنا مازلت لا اعرف هل رأتها أم لا . وهل يستطيع انسان أن يعرف دخيلة المرأة ؟ ما هي دخيلتك يا ماري ؟ هل تسمعين بالله ؟

الفصل الرابع

جاء يوم السبت هذا مختلفا عندي عن غيره من الأيام . كنت كل يوم أكره أن أذهب لفتح محل البقالة . ولكنني اليوم شعرت بميل واقبال على هذه العملية .

وقد قالت لى مارى معقبة :

ــ هل تخرج هكذا مبكراً ؟ أمامك نصف ساعة قبل الموعد . هذا نتيجة تبكيرك اليوم .

فقلت لها : هناك صناديق كثيرة لابد من فتحها ، وأشياء أكثر لوضعها على الرفوف قبل موعد الفتح . وأمامى قرارات خطيرة . هل أضع علب المخللات والطماطم على نفس الرف ؟ وهل لو وضعت معلبات المشمش والخوخ على رف واحد تتشاجر ؟.. انت تعرفين أهمية التنسيق بين الألوان المطبوعة على الفساتين ...

فقالت مارى : انت تمزح فى كل شىء . لكننى مسرورة فهذا أفضل من التذمر . أكثر الرجال يتذمرون .

كانت البلدة هادئة اليوم ، ولكن الكثيرين غادروها بالطبع فى عطلة عيد الفصح .

وصادفت فى طريقى ستونى سميث شرطى النهار خارجا من مطعم فورماستر بعد شرب القهوة . كان ستونى هو الذى يباشر أعمال الشرطة فى البلدة ، وكان رجلا ذكيا تمرس على أحدث الأساليب البوليسية وتلقى دراسة خاصة فى المباحث الفيدرالية بواشنطن ، ومن ثم كان مرهوب الجانب ، بعكس زميله وى ويلى الذى كان يتولى الحراسة الليلية فى سيارة الشرطة ، فيمضى أغلب الليل نائما.

قلت له وأنا أتطلع الى مسدسه وقيده الحديدى التى برزت حول جانبيه :

ــ عندنا عمل كثير اليوم ياستونى .

فرد قائلا : هيه ؟ لكن البلدة هجرها اليوم أهلها .

ــ هل من جرائم قتل ياستونى ، أم مجرد حوادث شغب ؟

ــ الهدوء مستتب هنا . هل سمعت عن عمليــة السطو على البنك فى فلودهامبتون ؟

ـ لا . هل اخذوا كثيرا ؟
ـ ١٣ الف دولار كما قيل . انني كنت خارج البلدة طول الليل، وقد خرج ويلي للمساعدة .
ـ هل تظن انهم سوف يقبضون عليهم ؟
ـ اعتقد . فان شركات التأمين لا تكف عن الصراخ والمتابعة .
ـ صحيح . اسمع ياستوني . بودي ان تتابع موضوع داني تيلور . انه يبدو في حالة سيئة جدا .
فقال ستوني : المسالة مسالة وقت فقط . سوف افصل بالتأكيد . حكايته مضرة فعلا . فهو شاب طيب ، ومن اسرة كريمة.
ـ ان حاله يقتلني . فانني احبه .
ـ وما الحيلة معه؟ ارى مطرا قريبا يا ايثان، وانا اكره البلل.
ولأول مرة فيما أذكر دخلت الحارة منتعشا وفتحت الباب الخلفي بانفعال . وبعد برهة رأيت جو مورفي يقترب من باب البنك الخلفي وبيده مفتاح الباب ، وكان بادي الاستياء ، ولما قلت له انني كنت اظن البنك مغلقا هذا اليوم قال لي :
ـ مكتوب على الا اغلق انا شخصيا . هناك خطأ في الحسابات قدره ستة وثلاثون دولارا ـ بالزيادة .
ـ هذا افضل بالطبع .
ـ لا . ولابد لي من معرفة مصدره .
ـ هل البنوك امينة الى هذا الحد ؟
ـ البنوك نعم . لكن الرجال هم الذين ليسوا كذلك . واذا كان لي أن أحصل على العطلة فلابد لي من معرفة مصدر الخطأ . هل سمعت عن حادث السطو على بنك « فلود هامبتون » ؟
ـ اخبرني ستوني . غريب اننا كنا نتحدث امس فقط عن حوادث السطو على البنوك . هل تتذكر ؟
ـ اعتقد انهم سيقبضون على اللصوص في خلال اسبوع أو اسبوعين .
ولما تركني كنست المحل ورفعت الستائر وانا في دوامة من المشاعر . وعلى مألوف عادتي كلما أهمني شيء ، رحت اتحدث الى اصدقائي المتراصين فوق الارفف :
ـ رفاقي الأعزاء . اذا كانت الحوادث بهذه البساطة فلماذا لا يكررها اكثر الناس ؟ لماذا يرتكب معظم الناس نفس الاخطاء مرارا وتكرارا ؟ هل لابد من شيء ينسونه دائما ؟ ربما تكون نقطة

الضعف الأساسية نوع من الطيبة . ان ماروللو قال ان المال لاقلب له . الا يكون صحيحا اذن ان اية طيبة فى رجل المال هى نوع من الضعف ؟ كيف يسوقون الأفراد الطيبين العاديين الى ذبح النـاس فى الحروب ؟ قد يفهم هذا اذا كان العدو يبدو مختلفا او يتكلم لغة مختلفة . لكن ما الراى فى الحرب الأهليـــــة الأمريكية ؟ ان « اليانكى » أبناء الولايات الشمالية أكلوا الأطفال ، و « الثائرين » اماتوا الأسرى جوعا . اذا كانت قوانين التفكير هى قوانين الأشياء ، فان الأخلاق هى مسالة نسبية ايضا ــ وكذلك الفضائل والرذائل. كلها نسبية فى كون نسبى .

« ان ما قلته لمارى العزيزة كمزاح هو الحق . ان أجـــدادى الأجلاء ملاك السفن وربابنيتها كانوا مفوضين فعلا بالاغارة على السفن التجارية اثناء الثورة الأمريكية وكذلك عام ١٨١٢ . عمل وطنى صميم ، ومطابق لنواميس الأخلاق . لكنهم فى نظر البريطانيين كانوا قراصنة ، وما أخذوه احتفظوا به . على هذه الصورة بدات ثروة الأسرة ، تلك الثروة التى ضيعها ابى . ومن هنا جاء المال الذى يجلب الغنى ويضاعف الثراء . وكان لنا أن نفاخر به ونتباهى .

« المال ليس فقط لا قلب له ، وايضا لا شرف ولا ذاكرة . المال محترم آليا اذا احتفظت به الى حين . لاتظنوا اننى أدين المـــال وأندد به ، فاننى معجب به الى حد بعيد . ان بعض الأســـماء العريقة بداوا ثراءهم ببيع اللحم البقرى للبريطانيين عندما كانت بلادنا تحارب البريطانيين ، واموالهم محل الاعجاب والتقدير مثل اى اموال اخرى ، وكذلك الأسرة العريقة . وأسرة أخرى لعلهـا اعظم ارباب البنوك جميعا . ان مؤسس الأسرة اشـــترى ثلثمائة بندقية من الجيش . وكان الجيش قد رفضها لأنها اسلحة فاسدة وهكذا اشتراها بثمن بخس، ربما بخمسين سنتا للبندقية الواحدة. ولم يمض الا قليل حتى بدا الجنرال فريمونت حملته البطولية فى اتجاه الغرب ، فاشترى البنادق بعشرين دولارا للواحــدة . ولم يسمع أحد قط ان كانت البنـــادق قد انفجرت فى أيدى الجنود حامليها . وهذا نوع من المال الذى يولد المال . ولا يهم كيف تحصل على هذا المال طالما انك تحصل عليه وتستخدمه لتحصل منه على المزيد . ان سيدى وسيدكم ماروللو الذى ينتهى نسبه الى روما العريقة على حق كل الحق . حيثما يتعلق الأمر بالمال ، فان قواعد الأخلاق المرعية تاخذ اجازة .

« تسالوننى لماذا آكلمكم وانتم معلبات ويقول ؟ وربما لانكم اهل حكمة وتكتم . انتم لاترددون ما تسمعونه ولا تثرثرون . المال لايكون موضوعا شائكا الا عندما يقتنيه صاحبه . ولكنه محبب للفقير يهفو اليه ويتوق . لكن الا توافقوننى على انه اذا أصبح الانسان مهتما اهتماما فعالا بالمال ، فلابد له أن يعرف شيئا عن طبيعته وخصائصه ونزعاته ؟ ان قلة قليلة من الناس ، ومنهم كبار الفنانين ، يهتمون بالمال لذاته » .

وبينما كنت منهمكا فى تفريغ صناديق المعلبات اذ سمعت طرقا عاليا على الباب الأمامى . ولما نظرت الى ساعتى الفضية العتيقة الفيتني لأول مرة فى حياتى لم افتح المحل فى الموعد المحدد وهو تمام التاسعة . كانت الساعة التاسعة والربع . وكان انهماكى فى التحدث الى المعلبات قد انسانى كل شىء . فاسرعت بفتح الباب ، واذا القادم مارجي « الصيادة الشابة » . ولم أكن فى الحقيقة قد نظرت اليها من قبل بامعان ولا تفحصتها . ولعل هذا هو سبب قراءتها للطالع ـ لكى تتأكد اننى اشعر بوجودها .

فتحت الباب . فدخلت بقوامها الرجراج المهتز . ومارجي مخلوقة لو وصفها جو مورفى لقال انها « طبق شهى » . كانت منتظمة التقاطيع ، طويلة الأنف قليلا ، مليئة الشفتين ، مصبوغة الشعر بلون كستنائى يجاوز اللون الطبيعى ولكنه جذاب ، تتلون عيناها الزرقاوان تبعا لحالة الضوء فيخالطهما اللون البندقى أو الفولاذى الثاقب .

وقفت برهة تقلب نظرها بينى وبين المعلبات ، وما لبثت أن قالت ضاحكة :

ـ انا محتاجة الى البن هذه المرة .

ـ هذا حال أكثر الناس .

ـ ما قصدك ؟

ـ ان أول عشرة « زبائن » كل يوم يطلبون البن ـ بالمناسبة ، اريد ان اشكرك لارسال مندوب المبيعات .

ـ كانت هذه فكرته ، فلا محل للشكر .

وقدمت اليها علبة البن . وعندما مدت يدها لكى تأخذها منى تحرك كل عضو فى جسدها وترجرج كأنما يعلن عن وجوده . كان كل شىء فيها جديدا ، أراه لأول مرة ، حتى لم اتمالك أن كتمت أنفاسى . ان مارى تقول ان المرأة يمكنها ارسال اشارات ،

اذا هي ارادت . واذا صح هذا فان مارجي كان لديها « شبكة اتصالات » تبدا من اخمص قدميها الى قمة شعرها !

قلت لها :

ــ ان قراءة الطالع كانت عملية مدهشة .

ــ هل تضايقت ؟

ــ لا . ولكنني اود فقط ان اعرف كيف امكنك هذا .

ــ انت لا تؤمن بهذا العمل .

ــ ليست مسألة ايمان . فانك حددت اشياء كنت افكر فيها وكنت انوى عملها .

ــ مثل ماذا ؟

ــ مثل نيتى للتغيير .

ــ هل تظن انني رتبت أوراق الطالع ؟

ــ ليس هذا هو المهم . ولو فعلت كذلك ، فما الذى جعلك تفعلين ؟ هل فكرت فى هذا ؟

واحت تتفرس فى عينى مستريبة ، مستخبرة ، متسائلة ، ثم قالت بصوت خافت :

ــ نعم . اعنى لا . اننى لم افكر فى هذا .

وفى هذه اللحظة اطل مستر بيكر براسه من الباب ، قائلا :

ــ صباح الخير يامارجى . هل فكرت يا ايثان فى اقتراحى ؟..

ــ فكرت فعلا . ويودى ان اتكلم معك .

ــ فى اى وقت تحب يا ايثان .

ــ الحقيقة اننى مشغول طول الاسبوع . فان مارولو لا يحضر الى هنا الا نادرا . هل ستكون فى البيت غدا ؟

ــ مؤكد ، بعد موعد الكنيسة . هذه فكرة . احضر معك مارى حوالى الساعة الرابعة . وبينما تثرثر السيدات عن قبعات عيد الفصح ، نتسلل نحن و ...

ــ عندى مائة مسألة اريد ان اسالك عنها . الافضل أن اكتبها فى ورقة .

ــ اى شيء اعرفه سيكون تحت طلبك . سانتظرك اذن . نهارك سعيد يا مارجى .

وعلى اثر انصرافه قالت مارجى :

ــ اراك بدات التغيير بسرعة .

ــ ربما كانت محاولة فقط قولى لى . ما رايك اذا قمت مرة

اخرى باستكشاف أوراق الطالع عشوائيا ، لمعرفة درجة قربها من نتيجة أمس .

فقالت :

ـ لا ! هذا لا ينفع . أم انت تسخر منى ؟ اننى اراك اليوم شخصا مختلفا . ما الذى سبب هذا يا ايثان ؟

ـ لا أعرف . ربما لاننى سئمت وجودى بائعا فى محل بقالة .

ـ لك حق ، وهذا هو الوقت المناسب . على كل حال سافكر فى اقتراحك عن استكشاف الطالع مرة ثانية .

ـ كلما اسرعت كان أفضل ، قبل أن تفتر الطوالع .

وخرجت وهى تهتز مترجرجة ، ورحت أنظر فى اثرها طويلا وكانها شخص غريب اراه لاول مرة ، أو شخص معروف اراه بعين جديدة .

وقد حدثت مناسبتان هذا اليوم برهنتا لى ان هناك تغييرا عميقا وبطيئا بدا يتشكل فى نفسى .

كانت أولاهما قدوم ماروللو الذى اشتدت عليه وطأة الروماتزم حتى ذهب يثني ويبسط ذراعيه مثل رافع اثقال . وقد بادرنى قائلا :

ـ كيف حال العمل ؟

ـ قليل .

ـ البلدة شبه مهجورة فى عطلة العيد .

ـ قل لى يا الفيو . منذ متي جئت من جزيرة صقلية ؟

ـ منذ ٤٧ سنة . مدة طويلة .

ـ الم تعد الى هناك مرة ؟

ـ لا .

ـ لماذا لا تذهب للزيارة ؟

ـ لاى سبب ؟ كل شىء تغير .

ـ ليس لك اقارب احياء ؟

ـ بالتاكيد . هناك اخي واولاده . وهؤلاء أصبح لهم أولاد .

ـ ربما يحلو لك أن تراهم .

فنظر الى كما نظرت الى مارجى قبله ، اذ عدتنى شخصا مختلفا ، وقال بارتياب :

ـ ما الذى يدور فى عقلك يافتى ؟ اراك اليوم شخصا مختلفا .

ـ الحقيقة عندى بعض الاخبار السارة .

ـ لعلك لا تنوى ترك العمل هنا ؟

ـ ليس حالا . ان اردت القيام برحلة الى ايطاليا فاعدك ان ابقى هنا .

ـ ما هى أخبـــارك السـارة ؟ ..

ـ لايمكننى أن اقولها الآن .

ـ مال فى الطريق ؟

ـ ممكن . اسمع أنت غنى بما فيه الكفاية . لماذا لا تعـود الى صقلية وتريهم كيف يكون الأمريكى الغنى ؟ أستحم هناك بالشمس ، بأمكانى رعاية المحل . انت تعرف هذا .

ـ أراك تغيرت يافتى . ما السبب ؟

ـ قلت لك . اذهب ولاعب الاولاد .

ـ اننى لم أعد أنتمى الى هناك .

لـكنني أيقنت اننى زرعت شيئا فى نفسه فعلا . وعرفت انه سيعود فى وقت متاخر هذه الليلة لجرد حســابات المحل . فهو مخلوق متشكك بطبعه .

ولم يكد ينصرف حتى جاء مندوب المبيعات بمحلات «ب.ب.د» كما فعل بالأمس . وقال لى :

ـ ليست هذه زيارة عمل . اننى ساذهب فى عطلة نهاية الأسبوع الى « مونتوك » . وخطر لى ان امر من هنا .

ـ يسرنى حضورك . اريد ان اعطيك هذا .

وابرزت له المحفظة الجلدية الثمينة تطل منهـا ورقة العشرين دولارا ، قائلا :

ـ خذها .

ـ ما قصدك ؟ هل انت غاضب ؟

ـ لا بالتاكيد .

ـ اذن لمـاذا ؟

ـ خذها !

ـ يا الهى ! هل قدمت محلات « وايلاندز » عرضا افضل ؟

ـ لا .

ودفعت بورقة البنكنوت الى جيب صدره تحت المنديل المنمق ، وقلت له :

ـ ساحتفظ بالمحفظة . انها جميلة .

ـ اسمع . لايمكننى تقديم اى عرض قبل الرجوع الى الادارة . ساتصل بك تليفونيا يوم الثلاثاء .

ـ المكالمة وردها على حسابك .
ـ المهم ابقاء الخط مفتوحا .
ـ هل تنوى صـــيد الأسماك ؟
ـ لو كان معى سيدات . حاولت أخذ مارجى المغرية الى هناك، لكنها كادت تحطم راسى . اننى لا افهم النساء .
ـ انهن اغرب من الغرابة .
ـ على كل حال لا تفعل شيئا قبل ان اتصل بك . يا الهى ! كنت اظن اننى اتعامل مع شخص ريفى ! ..
ـ اننى لن أبيع رب عملى بثمن زهيد .
ـ كلام فارغ . انك فقط رفعت الثمن .
ـ اننى فقط رفضت رشوة اذا اردت الصراحة .
وهذا برهان على اننى أصبحت شخصا مختلفا . فان صاحبنا بدا ينظر الى باحترام ، حتى أحببت هـــذه النظرة . ان المغفل حسب اننى مثله ، بل ابرع منه فى المساومة !
وقبيل اغلاق المحل اتصلت بى مارى تليفونيا وقالت لى :
ـ ايثان ... لا تغضب ولا تفقد اعصابك .
ـ من أى شىء يا زهرتى المعطرة ؟
ـ اننى دعوت مارجى للعشاء عندنا ، فالمسكينة وحيدة و ...
ـ وما المانع ؟
ـ الست غاضبا ؟
ـ أبدا . وبالمناسبة ، اكوى اجمل فساتينك . سنذهب الى بيكر فى الرابعة .
ـ فى بيتهم ؟
ـ نعم . لنتناول الشاى .
ـ لابد أن ارتدى ملابس العيد لحفلة الكنيسة .
ـ اجمل واجمل يا بنفسجتى .
ـ انت غير غاضب بخصوص مارجى ؟
ـ اننى احبك واعشقك !
وما كنت بهذا الا معبرا عن شعورى الصادق حيال مارى .

الفصل الخامس

انهمكت مارى فى اعداد وليمة العشاء لمناسبة زيارة مارجى « السيادة الشابة » . وبينما كنت ارتدى ملابسى استعدادا للوليمة جاءنى آلان فى غرفة النوم سائلا عن علبة الحبوب التى يعلوها قناع الفأر . فقلت له :

ـ الحقيقة اننى نسيت . لماذا لا تمر فى المحل وتأخذها ؟
ـ سأفعل .
ـ واين ايلين ؟
ـ انها تكتب موضوعها للمسابقة : أحب امريكا .
ـ وموضوعك انت ؟
ـ اننى أفكر فيه . هل تمانع اذا سألتك سؤالا يا أبى ؟
ـ لى الشرف .
ـ هل صحيح انجانبا كبيرا من شارع «هاى» كان مملوكا لكم ؛
ـ صحيح .
ـ وهل كانت لنا سفن لصيد الحيتان ؟
ـ نعم .
ـ ولماذا ليست لنا الآن ؟
ـ فقدناها .
ـ وكيف ؟
ـ هذا ما حدث .
ـ هل عندك وقت لتصعد الى غرفة السطح معى ؟
ـ سأجد الوقت اذا كان الموضوع هاما .
ـ قلت لى انه توجد كتب ومراجع بها موضوعات مختلفة .
ـ أية موضوعات مثلا ؟
ـ موضوعات وطنية ، لأجل المسابقة .
ـ فهمت . ما رأيك فى هذا كنموذج : « هل الحياة غالية الى هذا الحد والسلام حلو بهذا القدر حتى يوجد من يشتريهما بثمن القيود والعبودية ؟ حاشا لله ! لست أعرف اى طريق يسلكه

غيرى ، اما انا فاقول : اعطنى الحرية ، او اعطنى الموت ! » .
ـ رائع يا بابا !
ـ بالتأكيد . كانوا جبابرة فى تلك الايام .
ـ ليتنى عشت فيها . سفن قرصنة ! بوم بوم ! ارفعوا الرايات ! سبائك الذهب وسيدات يلبسن الحرير والمجوهرات ! ليتنى عشت تلك الايام . ان اهلنا عاشوها ، كما قلت انت .
ـ كانت نوعا من القرصنة المشروعة . واظن انها لم تكن حياة جميلة كما تبدو من بعيد .
ـ لا تهمنى المتاعب . كنت آخذ الذهب وأعود به الى البيت . اظنهم لايسمحون بهذا الآن .
ـ لا . العالم الآن اكبر واكثر نظاما . والعلاقات بين الامم يسمونها الآن الدبلوماسية .
ـ هناك ولد فى مدرستنا كسب جائزتين فى التليفزيون ـ مائتان وخمسون دولارا . ما رأيك يا بابا ؟
ـ لابد انه ذكى .
ـ هو ؟ لا طبعا . هو يقول انها حيلة يقوم بها . اذا عرفت وسيلة الحيلة امكنك ان تنجح . وعنده مجلة بها جميع المسابقات فى البلاد كلها . هل يمكن أن احصل على احدى هذه المجلات يابابا ؟
ـ حسنا. اذاكانت القرصنة قد انتهت، فان الحافز مازال باقيا.
ـ ما قصدك ؟
ـ مال بلا مجهود .
ـ هل يمكن أن احصل على تلك المجلة ؟
ـ كنت أظن ان تلك الالاعيب قد انتهت بعد الفضائح التى نشرت عنها .
ـ واين الفضائح ؟ كل ما هناك انهم يحتالون لاجراء تغييرات فى النصوص . بودى أن انال نصيبى من تلك الغنائم .
ـ هى غنائم اذن ؟
ـ هى نقود ، بصرف النظر عن كيفية الحصول عليها ؟
ـ لا أوافق على هذا . ان الضرر لا يقع على النقود بقدر مايقع الشخص المتحايل .
ـ لا ادرى كيف . ليس هذا ضد القانون . الغريب ان بعض الشخصيات الكبيرة فى بلادنا .
ـ ولدى ! .. ولدى ! ..

– ماذا تقصد يا ابى ؟ ..
– هل لابد أن تكون غنيا يا آلان ؟ ..
– وهل تظن اننى احب ان اعيش دون أن تكون لى دراجة بخارية ؟ وكيف الحال اذا كانت عائلتك ليست لها سيارة ، بصرف النظر عن التليفزيون ؟
– كلامك صدمة كبيرة لي .
– انت لا تعرف الحقيقة يا ابى . مرة كتبت فى الفصل موضوعا عن كيف كان جدى الأكبر ربانا لسفينة صيد الحيتان .
– انه كان كذلك .
– الفصل كله انفجر بالضحك . وقد سمونى « الحيتانى » ! ما رأيك فى هـذا ؟ ..
– شيء مؤلم .
– لن يكون مؤلما لو كنت محاميا أو صرافا فى البنك او شيئا مثل هذا . هل تعرف ما الذى سأفعله بأول « غنيمة » أفوز بها فى مسابقة من هـذا النوع ؟ ..
– ماذا ؟
– سوف اشترى سيارة حتى لا تشعر بالاحراج وانت ترى معظم النـاس عنـدهم سيـارات .
– شكرا لك يا آلان .
قلت هذا وقد شعرت بجفاف فى حلقى . ثم اضفت :
– عندما نصعد الى غرفة السطح بعد قليل سابحث لك عن مجلد ضخم به جميع الخطب العظيمة التى ألقاها زعماء أمتنا . وارجو أن تقرأها يا آلان .
– سأفعل . انا محتاج اليها .
وتركته وانا ابلل شفتى . كان آلان على حق . كان حرجى شديدا .
وبعد أن جلست فى مقعدى الـكبير تحت مصباح القراءة جاءتنى مارى بالجريدة . فقلت لها :
– كم انت سباقة الى كل ما هو مريح . عندى سر أقدمه لك هدية . ان مارجى زارتنى اليوم بدعوى حاجتهـا الى البن . وعندما تكلمنا عن قراءة الطالع اقترحت عليهـا أن تكرر المحاولة وتنظر ان كانت النتيجة واحدة .
– لاشك انك لم تفعل هـذا ! ..
– بل فعلت . وقالت ان هذا يكون شيئا طريفا .

ـ وهل تظن انها ستفعل ذلك هـــذه الليلة ؟
ـ اظن ان هذا هو سبب حضورها .
ـ آه . لها . انني دعوتها للعشاء .
ـ بعد أن مهدت لذلك من جانبها .
ـ الحقيقة أنت لا تحبها .
ـ بالعكس . انني بدات أحبها واحترمها .
ـ ليتني أعرف متى تهزل ومتى تجد ! ..
وفى هذه اللحظة جاءت ايلين بهدوء حتى لا تستطيع ان تعرف ان كانت تسترق السمع أم لا ، ولكنني اشـــك انها كانت . ان ايلين فى عامها الثالث عشر حلوة مرحة رقيقة مع ميل الي الكآبة ، وطبع شكس اذا لزم الأمر .
قلت لها وقد جلست على مسند المقعد ملاصقة لى :
ـ سمعت انك مشتغلة بموضوعك .
ـ الواشى اخبرك بهذا .
ـ هل هو جميـــل ؟
ـ جدا . وسأدعك تقرأه بعد أن أتمه .
ـ لى الشرف . اراك لبست استعدادا لوليمة الليلة .
ـ هـــذا الفستان القديم ؟ انني ادخر فستاني الجديد لحفلة الـــكنيسة غدا .
ـ فــكرة جميلة . سوف يكون هناك فتيان .
ـ انني اكره الفتيــــان .
ـ اعرف هذا . العداوة هى شـــعارك . أنا شخصيا لا احبهم كثيرا . الآن أريد أن أقرأ الجريدة .
فمالت عنى ، ولـكنها قالت تنتقم منى فى الحال :
ـ متى سوف تصبح غنيا ؟ ..
نعم . انها سوف تنغص يوما على رجل المستقبل حيــاته بمثل هذا الأسلوب ، وقد هممت أن أضربها « العلقـــــــة » التى كنت اهدد بها ، خصوصا بعد ان رايت نظرة التشفى فى عينيها ، لكننى امسكت وقلت :
ـ فى الأسبوع القـــادم .
ـ حسنا . الأفضل أن تسرع . انني سئمت الفقر .
واسرعت بالابتعاد . انني أهيم بها رغم كل عيوبها .
كان مكتوبا على الا اقرأ الجريدة . فقد وصلت مارجى .

فى الصباح كانت مارجى « الصـيادة » التى جاءتنى وفى نيتها وملامحها وزينتها الصيد والقنص. اما الآن فكانت الضيفة المحتشمة، الرقيقة ، المتواضعة ، الرزينة . وكان مسلكها نحوى كأننى زدت اربعين سنة منذ الصباح . يا للمرأة من مخلوق غريب . اننى معجب بما تفعله المرأة ، وان كنت لا افهم له سرا .

وكانت وليمة العشاء سلسلة من عبارات الاعجاب بجودة الطعام ومذاقه . وبعد شرب القهوة ارادت مارى ان تتخلص من وجود « الأولاد » ، فقالت انهما سيتكفلان بغسل الأطباق ، ولكننى اتقذت الموقف قائلا :

ـ لكننا نعطلهما عن موعد السينما اذا لم نمكنهما من الخروج الآن
لم تكن هناك نية لذهابهما الى السينما ، ولكن مارى فهمت ، وتطلعت الى بنظرة اعجاب لم تخل من انزعاج خفى .

وبدأ ثلاثتنا يحومون بحذر حول الموضوع الذى كنا نعلم انه آت لاريب فيه . فقالت مارى مستهلة :

ـ اننى لا اكاد افهم ايثان . كان طول عمره يكره قراءة الطالع، ويتندر عنه . فما الذى غير احواله ؟

فقلت وانا مسترخ فى مقعدى الوثير :

ـ المسألة هى ان ملايين النـاس يسعون الى معرفة الطوالع ويدفعون من جيوبهم . وهذا ما يجعل مثلى يهتم بالموضوع كغيره من عباد الله . ثم اننى أود ان اعرف شيئا عن أوراق اللعب التى تكشف الطالع . اننى جاهل ، وكثيرا ما سمعت ان « الغجر » يمارسون هذه العملية . هل أنت « غجرية » ؟

فقالت مارى عنها :

ـ ان اسمها الأول كان روسيا ، ولكنها جاءت من الآسكا .

فقالت مارجى موضحة :

ـ عندى سر مؤثم لم أخبرك به يا مارى، وهو كيف كنا فى الاسكا.

فقلت :

ـ ان الروس كانوا يملكون على الآسكا . وقد اشتريناها منهم .

ـ نعم . لكن هل عرفتم انها كانت سجنا ، مثل سيبيريا ، ولكن لاسوأ أنواع الجرائم ؟

ـ أية جرائم ؟

ـ ان جدتى الكبرى حكم عليها بالنفى والسجن فى الاسكا بتهمة السحر .

– وماذا كانت تفعل ؟
– كانت تثير العواصف .
فقلت ضاحكا :
– فهمت الآن كيف ينطبق عليك هذا الوصف .
– تثير العواصف ؟
– يعنى تقرأ الطوالع . ربما كان نفس الشيء .
فقالت مارى : أنت تمزحين .
– ربما . لكن هذا حقيقى . كانت هذه جريمة أسوأ من القتل ان أوراقها لا تزال عندى ، وان كانت باللغة الروسية .
– أيمكنك ان تقرئى الروسية ؟
– قليلا الآن .
فقلت : ربما كان السحر هو أسوأ جريمة .
فقالت مارى : هل سمعت . انه يقفز هنا وهناك ، ولا يعرف أحد اتجاه تفكيره ! على كل حال أود أن تقرأ مارجى الطالع ، ولكن بطريقتها الخاصة دون ان تتدخل أنت يا ايثان . اذا جعلنا نتكلم فسوف يعود « الأولاد » ولا نتمكن من شيء .
وجئت بمنضدة تنبسط وتنطوى كطلب مارى ، وجلست مارجى فى مقعد مستقيم الظهر كطلبها هى ، وقالت :
– ركزوا .
– على اى شيء ؟
– على لاشيء بقدر ما يمكن .
واخرجت من كيسها مجموعة نظيفة مصقولة من أوراق اللعب ، وان كانت أطول واضيق من الأوراق المعتادة ، ويزيد عددها عن ٥٢ ورقة .
وبدأت مارجى تقلب الأوراق . وكانت أسماؤها مكتوبة بالفرنسية :
الامبراطور – الناسك – المركبة – العدالة – الشيطان – الأرض – الشمس – القمر – النجوم ، الى جانب مجموعات من السيوف ، والكئوس ، والصولجانات ، والنقود . وكانت كل مجموعة مع « ملكها » ، و « ملكتها » ، و « فارسها » . ثم رايت أوراقا غريبة – مغلقة – برج يشقه برق ، وعجلة الحظ ، ورجل معلق من رجليه فى مشنقة سمى باسم « الهالك » ، والموت – مرموزا اليه بهيكل عظمى ومنجل .
لم اتمالك أن قلت :
– مناظر كئيبة . هل تعنى الصور ومدلولاتها ؟

ـ المسألة متعلقة بحركتها بالنسبة لبعضها البعض . اذا سقطت مقلوبة فانها تعكس المعنى .
ـ وهل هناك اختلاف فى المعنى ؟
ـ نعم . وهو الاستخلاص والتفسير .
ـ أين تعلمت هذا ؟
ـ اعتدت أن أراقب جدتي . وفيما بعد اعتدت أن امارس العملية كنوع من « الحيل » فى الحفلات ـ لجذب الانظار فيما اظن .
ـ وهل تؤمنين بهذا العمل ؟
ـ لا أعرف . أحيانا تظهر نتائج عجيبة .
وبدت يداها كشىءحى وهى تخلط الورق وتقسمه ثم تخلطه وتقسمه ثم تقدمه الى لكى أسحب . فقلت لها :
ـ وماذا افعل ؟
فهتفت مارى :
ـ اقرأ يا ايثان ! انظر ان كان يطابق ما ظهر أمس !
فنظرت الى مارجى قائلة :
ـ أشقر الشعر . أزرق العينين . هل أنت تحت الاربعين ؟..
ـ يكاد .
ـ ملك الصولجان . هذا انت .
وأخرجت من مجموعة الورق ملكا متوجا وموشحا ممسكا بيده صولجانا كبيرا احمر وازرق ، فوضعته مكشوفا واعادت خلط الورق . ثم أخذت تقلب الأوراق بسرعة وهى تتكلم بصوتغنائى. ووضعت ورقة فوق ورقتى قائلة : « هذه تغطيك » . ووضعت ورقة أخرى بالعرض قائلة : « وهذه تفسد أعاديك » . ثم ثالثة فوقها : « وهذه تتوجك » . ثم رابعة تحتها : « وهذه تسندك وتقويك » . بهذا شكلت صليبا من الورق فوق المنضدة . وبسرعة سحبت أربع ورقات صفتها الى يسار الصليب قائلة : « انت بذاتك ، وبيتك ، وآمالك ، ومستقبلك » . وكانت الورقة الأخيرة هى الرجل المشنوق المسمى بالهالك ، ولكنه بدا من مجلسى حول المنضدة معتدل الوضع . فقلت :
ـ كل هذا مستقبلى ؟
فقالت وهى ترسم خطا تحت شفتها السفلى :
ـ قد يكون المعنى الخلاص والنجاة .
وقالت مارى :

ـ هل المــال موجود فى الطالع ؟
فأجابت مارجى شاردة الفكر :
ـ نعم . موجود .
وفجأة جمعت الأوراق وخلطتها مرارا ثم كشفتها وهى تغمغم كلماتها الطقوسية بصوت خافت . وبدا انها لا تتفحص ورقة بعينها ولـكن المجموعة كلها فى آن واحد ، وكانت نظراتها بعيدة غائمة .
ياله من تحايل بارع ! فارسة فى مجتمعات النسـاء ! اذا استطعت أن تسيطر على الحاضرين وتشد أعصابهم بحيث يكتمون انفاسهم ويرتقبون متشــــوقين أمدا طويلا ، فسوف يصدقون اى شيء . ليست المسألة تصنعا ، بقدر ما هى فن وتوقيت . لاشك ان هذه المرأة تضيع موهبتها مع من تصطادهم من مندوبى المبيعات . لـكن ما الذى تريده منا أو منى ؟
فجأة جمعت أوراقها وأعادتها الى علبتها الحمراء قائلة :
ـ لايمكننى اتمام القراءة . هذا يحدث أحيانا .
فقالت مارى لاهثة :
ـ هل رأيت شيئا لا تريدين أن تقوليه ؟
ـ آه . أننى اقول كل شيء بصراحة . مرة عندما كنت فتــاة صغيرة رأيت حية تغير جلدها ، الحية ذات الجرس التى توجد فى جبل روكى . لقد راقبت العملية كلها . وحدث الآن وأنا انظر الى الأوراق انها اختفت من أمام نظرى ، ورأيت تلك الحية تغيرجلدها ، فكان جزء منه ترابيا مسننا وجزء جديدا غضا . لكمأن تحلوا المعنى.
فقالت مارى بحماس :
ـ ربما كان هذا رمزا لتغيير فى حظ ايثان سيحدث قريبا .
ـ أهو حية ذات جرس ؟
ـ آه . فهمت قصدك
فقالت مارجى :
ـ اكاد أشعر بقشعريرة . حدث اننى مرة شعرت بميل الى الحيات ، ثم لمــا كبرت أصبحت اكرهها . يحسن ان أذهب الآن .
ـ يمكن أن يصحبك ايثان الى البيت .
ـ هذا بعيد عن تفكيرى .
ـ شيء كهذا يسرنى
فنظرت مارجى الى مارى وقالت باسمة :
ـ احرصى على وجوده دائما بقربك . لايمكنك ان تتصورى ماهو

شعور المرأة بغير وجل .
فقالت ماري :
ـ كلام فارغ . بامكانك ان تنالي زوجا باشارة من اصبعك .
ـ هذا ما فعلته من قبل . لكن بلا فائده . ان من يأتون بمثل هذه السهولة لا يستأهلون الاستحواذ عليهم . حافظي عليه . فقد تختطفه منك احداهن . وليمة جميلة . ارجو ان تتكرر . آسفة يا ايثان بخصوص الطالع .
ـ هل سنراك في الكنيسة غدا ؟
ـ لا . سوف اسافر الى ضاحية مونتوك الليلة .
ـ لكن الطقس هناك بارد رطب .
ـ انني احب الصباح على شاطيء البحر هناك .
وخرجت حتى قبل أن افتح لها الباب ـ خرجت وكأن شيئا يطاردها .
وقالت ماري على الاثر :
ـ ايثان . ماذا تستخلص من قراءة الطالع الليلة ؟
ـ انها لم تقرأ شيئا .
ـ انت تنسى . قالت انه قد يكون فيه مال . لكن ما رأيك ؟ اظن انها رأت شيئا لا تريد أن تخبرنا به ـ شيئا اثار خوفها .
ـ ربما رأت الحية مرة فبقيت في عقلها .
ـ لعلك لا تظن ان لهذا ـ معنى ؟
ـ انت ياحبيبتي خبيرة بالطوالع . كيف لي ان اعرف ؟
ـ لابأس . يسرني على اي حال انك لا تكرهها . كنت اظن ان هذا هو شعورك .
ـ انا مخادع . انني اخفي افكاري .
ـ ليس عني . انها تتكشف في الوقت المناسب . آه . نسينا « الاولاد » . لنستعد الآن لعودتهم .

الفصل السادس

كان من عادتى ان ارجىء اتخاذ قرار فى موضوع ما الى حين اتدبره واقلبه على مختلف وجوهه . فاذا انبريت له بعد ذلك اراه وقد اضحى حله واضحا والرأى فيه محددا . ولابد أن هذا هو ما يحدث لكل انسان ، وان لم يكن لى من سبيل للقطع بهذا. والتعليل يبدو وكأنما قد انعقدت فى شعاب العقل ودروبه المظلمة محكمة خاصة واصدرت فى المشكلة قرارها بعد مداولات خفية .

وما من شك فى ان هذه المداولات الخفية فى شعاب العقل ودروبه المظلمة تتجلى آثارها المحتومة فيما يعتور الانسان من تغيير مستمر يعمل فى الأعماق ولا يطفو الى السطح الا بعد حين .

والواقع اننى كنت أشعر فى العهد الأخير بكثير من الأشياء الصغيرة . وقد بدأت تتخذ اشكالا اكبر ، وكان الأحداث والتجارب فى حياتى كانت تتصارع لكى تدفعنى فى اتجاه مضاد لوجهتى الطبيعية او التى كنت اظنها طبيعية — وجهة بائع محل البقالة ، الخائب ، الانسان الذى لا أمل أمامه ولا هدف ، الذى شدت أمامه المسالك بما يحمل من اعباء اطعام بطون وكسوة اجساد اسرته ، المقيد بأنماط وعادات ومذاهب كنت أعدها فاضلة قويمة . بل يسوغ لى أن أقول اننى كنت مطمئنا الى اندراجى تحت وصف ما يسمونه « الرجل الصالح » .

ومن المؤكد اننى لم أكن غافلا عما يدور من حولى فى ارجاء بيئتى المحدودة . كان القاضى دوركاس يتصرف فى بعض القضايا الصغيرة مثل قضايا مخالفات المرور تصرفات فيها مجال لتبادل الخدمات والمنافع . وكان العمدة ، الذى هو ايضا صاحب مؤسسة بود لمواد البناء ، يبيع المواد للبلدية بأثمان مرتفعة ، وبعضها مما لايحتاجون اليه . وعندما كان يتقرر شق شارع جديد ورصفه ، كان يحدث دائما أن يكون مستر بيكر ومارولو وزمرة أخرى من كبار رجال الأعمال سباقين الى شراء قطع الأراضى على جوانب الشارع حتى قبل اعلان المشروع . كانت هذه الأشياء هى الظواهر الطبيعية المألوفة ،

ولكنني كنت اعتقد دائما انها ليست موائمة لطبيعتي . وقد رأيت ماروللو ويكر ومندوب المبيعات ومارجي وجو مورفي يكرونني برفق بل يكادون يستحثونني ، الى حد ان ايماءاتهم وتلميحاتهم بدأ يكون لها مكان من تفكيري وعنايتي .

وقد كان يجب أن أنام هذه الليلة نوما عميقا بعد يقظة الليلة الفائتة أسوة بحبيبتي ماري التي استغرقت في اهنأ نوم ، لكن هذا لم يحدث . فان « النقط الحمراء » ظلت تسبح أمام عيني بلا انقطاع . وصحيح انني رحبت بها لكي افكر في موضوعات شتي مثل موضوع « مسابقة أحب أمريكا » التي سيشترك فيها ولداي ، ولكن الجانب الأوفر من تفكيري كان ينصب على التأمل فيما هو حادث لي من هذا التغيير وفيما ينبغي أن أفعل حياله ، ثم الفيت فجأة ان مؤتمر المداولات الخفية في شعاب العقل ودروبه المظلمة قد فصل في الأمر بقراره واوضح الطريق امامي بما لا لبس فيه ولا غموض . والظاهر انني كنت آخر من يعلم . فطوال اليوم كان الناس يلاحظون انني أبدو أحسن حالا ، وكان قصدهم انني أبدو مختلفا ، متغيرا عن سابق حالي ، واكثر ثقة بنفسي. ودليل ذلك ان مندوب المبيعات قد فوجيء بما لمسه من تغيير في مسلكي. وماروللو ذهب يتفحصني مستريبا متشككا . وجو مورفي كان يبدي تعليقات عميقة المضمون . ثم جاءت مارجي « الصيادة الشابة » التي لعلها كانت انفذهم ذكاء بقصتها عن الحية . لاشك انها استطاعت بطريقة ما ان تكتشف حقيقة واقعة عني قبلما تهيأ لي اكتشافها . وكان الرمز هو قصة الحية ذات الجرس .

ثم ان هيكل التغيير الجادة في نفسي كان يستهدف لضغوط من خارجي : تمثلت في رغبات الآن ومشتهياته ، وغمزات ايلين وتلميحاتها ، وما وعد به مستر بيكر من مساعدات .

وحين كنت أماري في هذا التغيير كان يعرض لي أحيانا هذا السؤال : افرض ان كونك بائعا متواضعا على الدوام وبلا أمل في التغيير لم يكن فضيلة ولا استقامة ولكن لونا من الخمول والتراخي وفتور الهمة ! ان النجاح في اى شيء يتطلب جراة واقداما . وربما كنت مترددا هيابا ، خائفا من النتائج . ان الأعمال الناجحة في بلدتنا ليست معقدة ولا مبهمة ، ولو جرى استقصاء وتحقيق للجرائم المتعلقة بالأعمال الحكومية والنشاطات الفردية في البلدة لوجد ان مئات القوانين والقواعد الاخلاقية قد انتهكت ، وان علت

من قبيل الانتهاكات اليسيرة والمخالفات الهينة. واعرف رجل الأعمال الناجح عندنا اذا نال ما يريد ، عمد الى تطييب نوازع الفضيلة عنده بأسهل مما يغير قميصه . وكأنى بهم يقولون : اذا كانت الجرائم الصغيرة تغتفر ويتجاوز عنها ، فلم لا يكون المثل مع كبرياتها ؟ ان مستر بيكر مثلا لم يقتل ابى ، لكنه عمل من طرف خفى على احراق السفينة « بيل آدير » وغرقها للفوز بالتأمين . اليس هذا من كبريات الجرائم؟ وهل تجد بين الثروات الكبرى التى نعجب بها ثروة لم تتحقق بالفتك والتجرد من نوازع الخلق ؟ لا أجد بينها ما لاينطبق عليه هذا الوصف .

ولو أننى وضعت قواعد الأخلاق جانبا الى حين ، فمما لاشك فيه اننى سأكون عرضة لجراح كثيرة . لكن هل ستكون جراحا اسوأ وانكى من جراحى الحالية ـ جراح الفشل والاحباط ؟ اذا كان للانسان أن يبقى على قيد الحياة ، فلا مفر من هذه الجراح .

لكن اذا أنا فتحت على نفسى هذا الباب ، فهل تكون لى القدرة على اغلاقه مرة اخرى ؟ لا ادرى . ما يكون لى أن أعرف حتى أفتحه ... وهل كان مستر بيكر يعرف ؟ وهل فكر مستر بيكر فى شىء من هذا ؟ كان ابى يعلم ان أسرة بيكر أحرقت سفينة « بيل آدير » للحصول على التأمين . فهل كان هذا هو السبب الذى من اجله يسعى مستر بيكر لمساعدتى ؟ هل كانت هذه هى « الجراح » التى علقت به فى المعترك المتصارع ؟

كان من عادتى اذا أبهمت على المسالك ان ألجأ الى جدى الأكبر أستشيره فى خيالى وأستمد منه الحكمة وفصل الخطاب . وفى هذا الموقف رأيتنى أسأله فى خيالى :

ـ هل أمضى بسفينتى فى هذا الطريق ؟ هو طريق آمن ؟ وهل يوصلنى الى بر السلامة أيها الربان المجرب ؟

ولكن لأول مرة ألفيته يضن على بالرأى الهادى ، اذ قال :

ـ لابد لك أن تختار الطريق بنفسك . ان ما ينفع انسانا قد يضر غيره ، ولن تعرف النافع من الضار الا فيما بعد .

هكذا ضن على العجوز الداهية بنصحه . لكن ربما لم يكن هذا ليغير من الأمر شيئا . فلا أحد يريد النصح وانما يريد التأييد والتأكيد .

الفصل السابع

كان افطار أحد الفصح رائعا بما اشتمل عليه من البيض الملون والفطائر واللحم المقدد . ولم يكد النهار يتقدم حتى فوجئنا بزيارة مارو للو لنا في البيت لأول مرة ، ولما دعوته الى الجلوس قال لي :

ـ لا . عنـدي لك كلمة واحدة . لقد سمعت عن تلك الهدية التي قدمها لك ذلك المندوب المتجول ، وسمعت كيف طردته .

ـ من اخبرك ؟

فأجاب باسما : لايمكن ان أقول .

ـ لابأس. وماذا عنها ؟ هل تريد ان تقول انه كان يجب ان اقبلها؟

فتقدم مني وصافحني بقوة قائلا :

ـ أنت شخص أمين .

ـ ربما لم يقدم لي ما فيه الـكفاية ؟

ـ هل تمزح ؟ أنت شخص أمين .

ومد يده الى جيبه المنتفخ واخرج منه كيسا قائلا وهو يربت على كتفي :

ـ خذ هذا .

وانتابه الارتباك والحرج ، فاستدار وولى هاربا .

نظرت الى الـكيس ، فكان به بيض الفصح المحلى الملون ، وهو متوافر عندنا في محل البقالة . ولما قلت لماري ان مارو للو جاء بهدية للأولاد قالت بدهشة :

ـ مارو للو ؟ يقدم هدية ؟ لايمكن ان أصدق !

ـ هذا ماحدث .

ـ لماذا ؟ انه لم يفعل ابدا شيئا كهذا !

ـ اظن انه يحبني .

ـ هل هناك شيء لا اعرفه ؟

ـ يازهرتي الجميلة . ان الحياة فيها مئات ملايين الأشياء التي لا تعرفها .

كان موعدنا اليوم لزيارة أسرة بيكر .
ولايمكن ان يعرف الانســـان أناسا مثل اسرة بيكر ما لم يكن يعرفهم منذ نشأته . ان التعارف السطحى ، بل الصداقة ، كلاهما شيء مختلف عن هذا . وكنت أعرفهم لأن اسرة هاولى واسرة بيكر كانتا متماثلتين فى الحسب والنسب ، والمنشأ ، وتجارب الحياة ، والثروة . ومن شأن هذا ان يجعل الاسرتين فى شبه نطاق خاص بهما بعيدا عن الدخلاء . وبعد أن فقد ابى ثروته ، لم تقفل اسرة بيكر الباب فى وجهى ، وبقيت مقبولا لديهم بحكم الصلات الوثيقة التى جمعت فى الماضى بين الأسرتين . ولـكننى معدود من الفقراء . والأعيان بلا مال لايبقون معدودين من الأعيان . ان ابنى الآن ، بلا مال ، لن يعرف آل بيكر ، وابنه سوف يكون دخيلا عليهم ، مهما يكن من اسمه وحسب أسرته . لقد أصـــبحنا مزارعين بلا أرض ، قادة بلا جنود ، فرسانا على الأقدام . ومن غير الممكن أن نبقى محتفظين بوجودنا . وربما كان هذا هو احد أسباب «التغيير» الذى كان حادثا لى فى هذه الاونة . اننى لا أريد المال ، ولم أرده فى اى وقت سابق ، من أجل المال . لـكن المال ضرورى للحفاظ على وضعى فى النطاق الذى اعتدته والذى يكفل لى الأمن والاستقرار . ولابد ان كل هذا قد تفاعل فى الشعاب والدروب المظلمة من عقلى ، ثم طفا على السطح لا كتفكير ، بل اقتناع .
لقد استقبلتنا مسز بيكر بحفاوة قائلة :
ــ مساء الخير . أننا سعداء برؤياكم . الحقيقة انك أهملتنا مدة يا مارى . ألم يكن هذا اليوم رائعا ، خصوصا حفلة القداس ؟
وقال مستر بيكر :
ــ أننا لانراكم كثيرا . اننى اتذكر جدك الـكابتن هاولى عندما جلس فى نفس هذا المقعد وراح يتحدث عن الأسبان القذرين الذين اغرقوا الأسطول الرئيسى . لقد بلغ من شـــدة انفعاله انه اراق الشاى الذى كان يشربه ، وان لم يكن شايا صرفا ، اذ كان جدك معتادا أن يشرب « الروم » تحت طبقة من الشاى ! انه كان رجلا قوى الشكيمة ، وان عده بعض الناس شديد الخصومة .
هكذا سنحت لى الفرصة للتحدث عن أسرتنا ، فقلت ونحن جلوس حول مائدة الشاى :
ــ مستر بيكر . لسنا فى حاجة الى استعراض الماضى كله وأنت خير من يعرفه . انت تعرف الظروف التى جعلت والدى يفقد ثروة

الأسرة . كنت انا وقتهـــــا احارب مع الجيش فى الخارج . فـكيف حدث هذا ؟ ..
ــ لم يكن يقصد الى ماحدث ، ولـكن تقديراته ...
ــ انا أعرف انه لم يكن موفور الخبرة بأحوال الدنيا . لـكن كيف حدث ما حدث ؟
ــ الحقيقة ان ذلك كان فى فترة استثمارات اتسمت بالمجازفة. وقد جازف فى استثماراته .
ــ ألم يجد من يقدم له النصح ؟
ــ انه وضع أمواله فى العتاد الحربى الذى كان وقتها قد وصل الى درجة التشبع. وعندما ألغيت الارتباطات المبرمة ، فقد أمواله.
ــ انك وقتها كنت فى واشنطن . فهل كنت تعلم بامر الارتباطات التى تقرر الغاؤها ؟
ــ بطريقة عامة فقط .
ــ ولـكن بالدرجة الـكافية التى جعلتك انت لا تستثمر .
ــ لا . لم يحدث هذا .
ــ هل قدمت النصح لأبى بصدد الاستثمارات ؟
ــ كنت فى واشنطن .
ــ لـكنك كنت تعرف انه اقترض الأموال التى استثمرها ، برهن ممتلـكات أسرة هاولى ؟
ــ نعم ، عرفت هــذا .
ــ وهل نصحته بعدم المجازفة ؟
ــ كنت فى واشنطن .
ــ ولـكن بنكك حبس الرهينة .
ــ انت تعرف يا ايثان ان البنك غير مخير .
ــ نعم أعرف . ومع ذلك فقد كان من المخجل انك لم تستطع تقديم النصح اليه .
ــ لا يجب أن تلومه يا ايثان .
ــ انا لا ألوم بعد أن فهمت الموقف الآن . لـكننى لم اكن أعرف حقيقة ما حدث على وجه التحديد .
اعتقد ان هذا « الهجوم » المفاجىء من ناحيتى قد أفقد مستر بيكر عنصر المبالاة . وراح يفكر فى مباداة جديدة يفتتح بها الحديث، فسعل . وتمخط ، ومسح عينيه ، وصقل نظارته .
وعندما استعد للحديث قلت له :

ـ أنا أعرف انه لا حق لى فى ان أطلب منك المساعدة . ولكنك انت نفسك اشرت اكثر من مرة الى موضوع الاتصال الطويل بين العائلتين . واقول بصراحة يامستر بيكر انه لم يكن فى نيتى أن انبش الجروح القديمة. انني اريد فقط ان اعيد تأهيل نفسى للمستقبل.

ـ هذه هى الروح المطلوبة يا ايثان . جاء وقت حسبت فيه انك فقدت الروح الأصيلة لأسرة هاولى .

ـ كان ذلك فعلا . أو ربما لم أعمل على تنمية هـذه الروح . والآن وقد عرضت أن تمد يد المساعدة ، فمن أين يمكن أن ابدأ ؟

ـ المشكلة هى انك فى حاجة الى راس مال ، لـكى تبدأ ..

ـ اعرف هذا . لـكن توفر راس المال ، فمن اين أبدأ ؟

فقال بيكر :

ـ لابد ان هـذا الـكلام سيبدو مملا للسيدات . وربما كان الأفضل أن ننتقل الى حجرة المـكتبة .

فنهضت مسز بيكر قائلة :

ـ كنت على وشك أن اسأل مارى ان تساعدنى فى اختيـــار ورق للحائط فى غرفة النوم الـكبيرة . « العينات » موجودة فوق يا مارى .

وبعد انسحاب السيدتين قال مستر بيكر :

ـ قلت ان مشكلتك هى رأس المال يا ايثان . ان بيتك خلو من الرهون . بامكانك أن ترهنه بقرض .

ـ لايمكن أن أفعل هذا .

ـ بامكانى أن احترم رايك . لكن هذا هو المورد الوحيد المتاح. ثم هناك مال مارى الذىحدثتنى عنه ، هو ليس بالكثير ، لكن ببعض المال يمكنك أن تستزيد من المال .

ـ لا أريد أن أمس مالها . انه ضمانها للمستقبل .

ـ انه حساب مشترك فى البنك ، ولا يربح شيئًا .

ـ لنقل اننى تغلبت على معارضتى . فما الذى عندك من مصادر الاستثمار ؟

فمسح زجاج نظارته بعناية بالغة ، وقال :

ـ ان ما ساقوله لابد أن يبقى محل الـكتمان .

ـ بالطبـع .

ـ من حسن الحظ أنا اعرف انك لا تكثر من الـكلام . لم يكن فى اسرة هاولى من هو كذلك ، باستثناء والدك . والآن ، اننى

اعرف كرجل اعمال ان بلدة « نيو بايتاون » سوف تنمو ، وكل شيء يساعد على نموها . وازدهارها : من ميناء ، وشواطيء ، ومسالك مائية داخلية . وما هو الا ان تبدأ في النمو ، فلن يعوقها شيء . ويتعين على رجل الأعمال أن يساعدها في عملية التنمية .
— ويجنى نصيبا من الأرباح .
— طبيعي .
— ولماذا لم تحدث هذه التنمية في الماضي ؟
— اظن انك تعرف السبب : وهم رجال مجلس البلدة المتخلفون. انهم يعوقون كل تقدم .

كان يستهويني دائما أن ارى كيف ان حوافز الربح تلبس مسوح الغيرة على الصالح العام . وبتجريد مستر بيكر من ظواهر الغيرة على الصالح العام هـذه ، يبدو كما هو في حقيقته ، فهو وقلة مختارة معه ، يظلون يساندون الادارة المالية للبلدة الى أن يتمكنوا من شراء أو السيطرة على كافة المرافق المقبلة ، وعندئذ لايلبثون أن يطيحوا بالمجلس القائم والعمدة الحالى لافساح المجال للتنمية والتقدم ، ثم يتكشف بعد ذلك انهم يستحوذون على كل مصدر يمكن أن تتحقق التنمية عن طريقه . ومن الناحية العاطفية البحتة كان راغبا في اشراكي للاسهام بنصيب يسير ، وان لم يبين لى طبيعة الأعمال واقتصر كلامه على حدود العموميات . ثم ان انتخابات البلدة سوف تجرى في السابع من يوليو ، وعندما يحل هذا الموعد يكون الجماعة التي ترفع شعار التقدم قد سيطرت على كافة مجالات التنمية والتقدم .

قلت له مع ذلك :
— لابد ان افكر في هذا ياسيدى ، وما هو سهل لك اعتبره لغزا بالنسبة لى . ثم انه لابد لى من مناقشة المسألة مع مارى.

فقال : في هذه النقطة اراك على خطأ . فالعنصر النسائى لا مجال له في مسائل الأعمال ، فيما اظن .
— لكن المال مالها الموروث .
— المهم أن تنمى لها المال وتقدمه هدية لها . انهن يفضلن هذه المفاجاة .
— ارجو الا ابدو في نظرك يامستر بيكر شخصا جاحدا لفضلك. لابد لى من التفكير . هل سمعت ان مارولو سوف يذهب الى ايطاليا ؟

فبدت فى عينيه نظرة حادة وهو يقول :
ــ نهائيا ؟
ــ لا مجرد زيارة .
ــ حسنا . أرجو أن يتخذ خطوة لتامينك فى حالة حدوث شيء له . انه ليس بالصغير السن ، هل حرر وصيته ؟
ــ لا أعرف .
ــ لو ان بعض أقاربه تدخلوا ، فقد تجد نفسك بلا عمل .
فلجأت الى أسلوب الغموض قائلا :
ــ انك اعطيتني مادة للتفكير. لكننى أتساءل ان كان يمكنك ان تعطينى فكرة صغيرة عن متى تبدأ .
ــ بامكاني أن أقول لك هذا . ان التنمية تتوقف الى حد كبير على المواصلات .
ــ ان الطرق الكبرى آخذة فى الزيادة .
ــ ومع ذلك فالوقت طويل أمامها . ان نوعية الرجال ونوعية الأموال التى نريد اجتذابهم واجتذابها لن يصلوا الا عن طريق الجو.
ــ وليس عندنا مطار ؟
ــ هذا صحيح .
ــ وفضلا عن ذلك فليس عندنا مكان لانشاء مطار دون هدم التلال المحيطة بالبلدة .
ــ وهى عملية باهظة التكاليف .
ــ اذن فما هى خطتك ؟
ــ ايثان . لابد أن تثق بى وتسامحنى . لايمكننى أن أقول لك هذا فى الوقت الحالى . لكننى أعدك اذا أمكنك تدبير رأس مال ، فاننى سأعمل على وجودك فى طليعة المستفيدين . ان العائلات القديمة لابد أن تتساند وتتكافل .
ــ هل مارولو فى المجموعة ؟
ــ لا بالتأكيد . انه يمضى فى طريقه الخاص مع أبناء جلدته .
ــ انهم يثرون هنا ، أليس كذلك ؟
ــ أكثر من اللازم . اننى لا احب ان أرى هؤلاء الأجانب يزاحمون ويتسللون .
ــ والسابع من يوليو هو الاختبار الحاسم ؟
ــ هل أنا قلت هذا ؟
ــ لا . مجرد تخمين من جانبى .

ـ لابد انه كذلك .
وعند هذا الحد عادت مارى بعد انتهاء مشاورات ورق الحائط . وعلى الأثر قمنا بواجب الاستئذان وسرنا الهوينا عائدين الى البيت.
ولما سألتني عن نتيجة اللقاء قلت لها :
ـ يريد أن أستخدم مالك كبداية اقوم بها . اما انا فلا اريد هذا.
ـ أنا أعرف انك تفكر في أمرى ياعزيزى . لكننى اقول لك انك اذا لم تعمل بنصيحته فانك أحمق .
ولما حاولت قالت بعزم :
ـ خذ كلامي هذا يا ايثان : اذا لم تفعل ما يشير به عليك ، فسوف آخذ المال وأسلمه له بيدى .
ثم اضافت فجأة :
ـ هل نسيت ما قاله الطالع ؟
ـ يا الهى ! الطالع مرة أخرى !
ـ أن اعتقادى فيه راسخ .
ـ لو انني ضيعت مالك لكرهتني .
ـ لن أكرهك . انت طالعى ومالي . هذا ما قالته لى مارجى.
وعندما رأتني أعارضها قالت فجأة بلهجة التهكم :
ـ أمن أجل الحرص على المال تستكثر علينا المزيد ؟ أليس من حقى أن تكون لنا ستائر جديدة وماء ساخن يكفى لحمام أربعة أشخاص في نفس اليوم وغسل الأطباق به أيضا ؟
ـ ليست المسألة هى هذا يامحبوبتى . اننى أخشى العواقب التى تجلبها كثرة المال .
واذا هى تقول بشراسة :
ـ اسمعوا وعوا ! ها هو ذال بائع في محل بقالة لايملك شيئا ويشغل باله بما سيكون عليه الحال بعد الغنى ! انك تتصرف وكأنك تستطيع تحقيق الثراء فى اى وقت تريده ؟
ـ أظن ان هذا بامكاني .
ـ كيف ؟
ـ هذه هى المشكلة .
ـ انت لا تعرف ، والا لفعلت هذا قبل الآن .
هذا مجرد « تهويش » منك . دائما «تهويش» .
وسرنا فى ظلام الليل الى البيت دون أن نتبادل كلاما آخر .

الفصل الثامن

بدا لى ذات مساء ان انهد داني تيلور في الجحر العفن الذى يعيش فيه ، فرايت شمعة مضاءة فى طبق قرب سريره النقالى ، وكان فى شر حال من الهزال والمرض ، وكان يصعب الا يشعر الانسان بالغثيان لرائحة المكان القذر والرجل القذر. وكان مفتوح العينين جامدهما ، وقد توقعت أن أراه يهذى بالحمى . فكانت صدمة لى أن سمعته يتكلم بوضوح وبالنبرات والأسلوب التى عهدتها فى دانى تيلور .

قال لى : ما الذى تريده يا ايث ؟

ـ اريد مساعدتك . أنت مريض .

ـ هل تظن اننى لا اعرف هذا ؟ انني اعرف اكثر من اى انسان. وتحسس خلف الفراش وجاء بزجاجة ويسكى مليئة الى ثلثها ، وقال : اتأخذ جرعة ؟

ـ لا ياداني . هذا ويسكى فال .

ـ عندى أصحاب .

ـ من أعطاك الزجاجة ؟

ـ ليس هذا من شأنك يا ايث .

وتناول جرعة ، فصعد التلون الى وجهى ، واردف قائلا :

ـ ان صاحبى أراد أن يتكلم فى الأعمال ، لكننى استغفلته . انني تظاهرت بالاغماء قبل أن يستمر فى الكلام . هل تريد أن تتكلم فى الأعمال يا ايثان ؟ لأنه يمكن أن أشعر بالاغماء مرة ثانية!

ـ هل تشعر بأى احساس من ناحيتى ياداني؟ اى ثقة... اى شعور؟

ـ بالتأكيد . لكن اذا نظرنا فى الأمر فاننى سكير ، ومشاعر السكير كلها فى الخمر .

ـ لو أمكنني أن أدبر المال اللازم ، فهل تقبل أن تتقدم للعلاج؟ والمروع فى الموضوع انه استحال بسرعة الى طبعه الاصلى، وقال : يمكن ان أقول انني اقبل يا ايث . لكنك لا تعرف طبيعة

السكير . اننى قد آخذ المال واسكر به عن آخره .
ـ لنفرض اننى دفعته مباشرة الى المستشفى او دار العلاج ؟
ـ من السهل أن اذهب مشبعا بكافة النوايا الطيبة ، ثم اخرج بعد ايام قليلة . لايمكنك أن تأتمن سكيرا يا ايث .
ـ الا تريد أن تنقذ نفسك من هذه الحالة ياداني ؟
ـ اظن اننى لا اريد .
ثم تناول جرعة اخرى من الزجاجة وقال على اثرها بصفاء غريب:
ـ لقد عرضت أن تقدم أجر علاجى يا ايث . لكنك لا تملك المال اللازم .
ـ بامكانى تدبيره . ان مارى ورثت بعض المال من اخيها .
ـ وتريد أن تعطينى هذا المال ؟
ـ نعم .
ـ حتى برغم قولى لك الا تثق بسكير . حتى برغم تاكيدى لك انى قد آخذ مالك واحطم قلبك ؟
ـ انك تحطم قلبى الآن ياداني .
وخطرت لى فكرة فاضفت قائلا :
ـ هل كان بيكر هو الذى اعطاك زجاجة الويسكى ؟
ـ نعم .
ـ هل اراد ان توقع له على شيء ؟
ـ نعم . لكننى تملصت بالاغماء .
قال هذا ضاحكا ثم رفع الزجاجة الى شفتيه ، فقلت له :
ـ هذا ما اردت أن اقول لك ياداني . هل كان يريد منك أن تبيع له أرض قصر العائلة المهدم فى الريف ؟
ـ نعم .
ـ كيف حدث انك لم تبعها حتى الآن ؟
ـ لأننى اظل من الأشراف ، ولا ينقصنى الا اخلاقهم .
ـ لا تبع الأرض ياداني . تمسك بها .
ـ وماذا يهمك منها . ولم لا ؟
ـ من اجل كرامتك .
ـ لم تبق لى كرامة . حسب قديم فقط .
ـ على كل حال لا تبع الأرض ياداني . انها ذات قيمة كبيرة. وبيكر يعلم هذا . فهو لايشترى شيئا لا تكون له قيمة .
ـ وما قيمتها المحتملة ؟

ـ انها المكان الوحيد الذى يصلح لاقامة مطـار .
ـ فهمت .
ـ اذا تمسكت ، فيمكن ان تكون هذه بداية جديدة لك يادانى. بامكانك أن تباشر العلاج، وبعد شفائك سوف تجد عشا مليئا بالبيض.
ـ ربما . لـكن الأفضل ان ابيعها وأشرب بثمنها .
ثم أردف بضحكة غريبة :
ـ هل تريد الأرض يا ايثان ؟ هل لهذا سبب جئت الى هنا ؟
ـ اريدك أن تـكون بخير .
ـ أنا بخير .
ـ اسمع يادانى . أنت تملك شيئا يريده جماعة من المواطنين بعيدو النظر ويحتاجونه . وقد سمعت انهم يفكرون فى وضعك فى احدى المصحات لـكى تنال ما تحتاج اليه من علاج .
ـ انهم لا يجسرون على هذا .
ـ بل يستطيعون . ان القاضى يمكنه الحكم بعدم أهليتك لادارة العقار ، وتعيين حارس عليها ، وأستطيع أن اضمن من سيكون. وسوف يكون لـكل هذا تكاليف كثيرة ، وهكذا تباع أرضك لتغطية التكاليف ، ولك ان تخمن من سيكون المشترى .
لمعت عيناه وراح يصغى منفرج الشفتين ، وما لبث أن قال :
ـ انت تحاول تخويفى يا ايث .
ـ لـكننى قلت لك ما سوف يحدث .
ـ اننى أوافقك . لـكن السكير له أيضا قدراته الخاصـة . بامكانى أن أقاومهم ، وأنا على استعداد لهذا منذ هذه اللحظة .
ـ يا لك من شجاع ! هذا ما أردت ان أسمعه منك .
فنظر الى من فوق عنق زجاجـة الويسكى كما ينظر من فوق بندقية ، وقال :
ـ هل تقرضنى نقود مارى ؟
ـ نعم .
بغير ضمان ؟
ـ نعم .
ـ مع علمك بأن فرصة استردادها هى بنسبة واحد الى الف ؟
ـ نعم .
ـ هناك شىء قبيح فى السكير يا ايثان . اننى لا أصدقك . هل تضع النقود بين يدى ؟

ـ فى اى وقت تشاء .
فرفع الزجاجة الى شفتيه وشرب منها طويلا . ثم قال وقد زادت عيناه لمعانا وان بدتا باردتين كعينى افعى :
ـ هل يمكنك احضار النقود هذا الأسبوع يا ايث ؟
ـ نعم .
ـ يوم الأربعاء ؟
ـ نعم .
ـ هل معك الآن دولاران ؟
لم يكن معى مصادفة أكثر من هذا القدر ، وكانت نقودا نثرية فاحتواها فى راحة يده الممدودة . وقد عمد الى الزجاجة فافرغ باقيها ثم ألقاها على الأرض قائلا :
ـ هل تعرف يا ايث أن العلاج يكلف حوالى الف دولار ؟
ـ ليكن .
ـ هذا مضحك يا ايث. انت تتصور اننى سأقدم ارضى كضمان ، وتراهن فى نفسك على ان شرابا بقيمة الف دولار سوف يقتلنى ، وهكذا يسقط مطار فى خجرك كما تسقط الثمرة .. !
ـ هذا كلام سخيف ياداني . الا يمكنك ان تتصور ان قصدى هو خيرك ؟
ـ لا . ومع ذلك فانني سأتصرف بطريقتي الخاصة . اننى اشعر بجفاف ، والزجاجة قد فرغت . سأخرج الآن . والثمن هو الف دولار .
ـ كما تشاء .
ـ والمبلغ بالنقد يوم الأربعاء .
ـ سوف أحضره .
ـ لامكاتبات ، ولا امضاءات ، ولا اى شيء . لا تعتمد يا ايث على الصداقة التى جمعتنا فى الماضى . انا غير مدين لك بأى ولاء ولا ارتباط . وما سوف تناله لن يكون أكثر من ضحكة من الاعماق.
ـ كل ما أطلبه منك هو أن تحاول .
ـ أعدك بهذا يا ايث . لكن آمل ان اكون اقنعتك ماهو وعد السكير. ما عليك الا أحضار النقود . ولك أن تبقى الآن ماشئت ، فان بيتى هو بيتك . انا خارج الآن . أراك يوم الأربعاء يا ايث.
وانحدر من الفراش وسار الى الخارج مترنحا متطاوحا .
لبثت مكانى برهة أراقب ذوب الشمعة وهو يتساقط فى الطبق.

كنت واثقا ان فى ذلك « الحطام » شيئا يبرر الآمال التى تعلقت لانتشال دانى تيلور من وهدته . وبعد فترة موحشـــة اطفـــات الشمعة وعدت الى بيتى .

كانت مارى نائمة وقد أفتر ثغرها عن ابتسامة هانئة . وعندما تسللت الى جانبها فى الفراش افاقت وقالت :

ــ اظن انك جوعان .

ــ نعم يانور عينى .

ــ وماذا تريد ؟

ــ شطائر بها بصل .

ــ سأعد لك ولى شطيرتين .

وهبطت الى المطبخ ثم عادت بعد قليل ومعها الشطيرتان وكوبا لبن . فقلت بين المضغ والشرب :

ــ اريد الف دولار .

ــ هل المسألة تتعلق بشىء قاله لك مستر بيكر ؟

ــ الى حد ما . ولـكنها مسألة ستبقى سرية .

ــ لاباس . اكتب الشيك .

ــ لا ياحبيبتى . اريد منك المبلغ نقدا . ولك ان تدعى فى البنك انك سوف تشترين اثاثا أو سجادا جديدا أو اى شىء .

ــ ومتى تريد المبلغ ؟

ــ غدا .

ــ ان هذه البصلة حامية . ان رائحتى ستفوح كريهة .

ــ انت محبوبتى دائما .

ــ لايمكنى أن انسى حكاية ماروللو وحضوره الينا بكيس الحلوى .

ــ لله فى خلقه شئون .. !

ــ هل ستعود الى الهذر ؟ هيا بنا ننام .

لكن النوم كان مستعصيا . وظلت البقع الحمراء تسبح امام عينى . رحت أسائل نفسى : الآن وقد وطنت النفس على تغيير طريقى ، فهل استطيع وقف العجلة عن الدوران الى الغاية المنشودة؟ شعرت ان هذا ممكن ، لـكننى قدرت اننى لا أريد .

وفى استعراضى للأحداث كانت تتكشف لى تفصيلات لم افطن اليها وقتها . ان مارى على حق فى استغرابها لزيارة مارولو . انني رايت فى هذا بادرة للشكر على اننى لم اخن عهد الأمانة والصدق . لـكن تساؤل مارى جعلنى اعيد التفكير حتى بدت لى زاوية فاتتنى

في حينها . ان ماروللو لم يكافئني من شيء مضى ، ولكنه جاء « يرشوني » عن أشـــياء قادمة . انه لايهتم بي الا من حيث ان اكون نافعا له . ولابد انه يريد شيئا مني أو يحتاج الى شيء . وبوسعي ان اكتشف هذا . فلو انني سألته شيئا كان يرفضه عادة ثم اجابني اليه ، اذن لتهيأ لي ان اعرف انه واقع في ورطة شديدة .

وفي ابان هذه الخواطر سمعت فجاة صرير درجات الســلالم الخشبية العتيقة ، وبدا لي ان ايلين لابد أن تكون عادت الى عادتها السابقة من السير اثناء نومها .

انني أحب ايلين بالطبع ، لكنها تخيفني احيانا . انها تغار من اخيها ، ويخيل الى احيانا انها تغار مني .

كانت تمر في هذه الفترة العسيرة من حياة المراهقات التي يكتنفها الغموض والتي تلوذ فيها البنات بالتكتم والسرية . وهذا مادفعني الى مراقبة حركاتها عن كثب وملاحظة دوراتها الخفية في البيت . جيئة وذهابا . كانت مثل قطة ليلية . وقامت عندها عادة المشي اثناء النوم . وعندما سمعت الآن وقع خـــطواتها وهي تهبـــط السلالم تسللت بهدوء من جانب ماري المستغرقة في النوم ولبست رداء الحمام واتجهت الى السلالم خفيف الوطء ، ايمانا مني بان السائر في نومه ينبغي الا يوقظ بعنف .

كنت أعرف بخبرتي ان الهبوط في سلالم بيتنا من ناحية الحائط لايحدث صريرا . وهكذا هبطت دون أن يسمع لوقع قدمي صرير . وكان الظلام سائدا الا من انعكاس ضوء مصباح الشارع ، وذلك الوهج النوراني الذي بدا لي انه ينبعث من رداء ايلين الابيض حتى بدا في الظلام كهالة تحف بها .

لقد وقع نظري عليها واقفة امام الدولاب الزجاجي الواجهة الذي نحتفظ فيه بمخلفات تاريخ الأسرة التي كدسها اجدادي من رحلاتهم الطويلة في سفن صيد الحيتان عبر بحار العالم .

كنت أعد هذا الدولاب مكانا مقدسا اعتز بذخائره ، وعلى الأخص ذلك الحجر المكور نصف الشفاف الذي يبلغ محيطه اربع بوصات وبوصة ونصفا عند قمته المستديرة . وكان لهذا الحجر خاصـــية غريبة : فهو يبدو وكأنه كائن حي ، وملمسه به طراوة بســـــيرة كاللحم ، حتى كانت تنبعث منه دائما حرارة عقب الملامسة .

كان هذا الحجر السحري العجيب الذي جاء به اجـــدادي من

الصين معدودا لدى الأسرة « تعويذة الحظ » التى يتفاعل بها كل انسان . وكان للدولاب قفل نحاسى عتيق به مفتاح نحاسى مربع يترك دائما فى القفل .

والآن قــد وقع نظرى على ابنتى النائمة ممسكة بالحجر بين يديها تداعبه بأصابعها وتدلله كأنما هو كائن حى وتضمه الى صدرها الصغير وتضعه على خدها وتهدهده كجرو وتشدو باغنية خافتة تشف عن الحنين والبهجة . وكانت فى ابنتى أحيانا نزعة مدمرة حتى خشيت أول الأمر أن تتجه الى تحطيم الحجر السحرى أو تعمل على اخفائه فى مكان بعيــــد ، بيد اننى رأيتها الآن كأم ، وعاشقة ، وطفلة ، اجتمعن بين جوانحها .

لقد خفت أن افزعها اذا ايقظتها . لـكنى مالى أتدخل ؟ لم يكن هذا كابوسا مليئا بالألم أو الخوف ، بل كان شيئا اقرب الى المسرة والاندماج فيما لايدركه العقل الواعى ، فلماذا أفسد عليها هــذه المشاعر؟ هكذا ابتعدت بهدوء وجلست فى مقعدى الـكبير انتظر .

وبعد فترة أعادت ايلين التعويذة الى مكانها واغلقت البــاب الزجاجى وادارت المفتاح فى القفل . ثم استدارت ومرت بمقعـدى وانشأت تصعد الدرج .

وانتظرت برهة ثم تبعتها ، فوجدتها فى فراشها نائمة والغطـاء فوقها محكما ، وكانت تتنفس بهدوء من خلال فمها وبدا محياها كمحيا طفل نائم .

تملـكتنى وتشـــد رغبة جامحة ، فهبطت السلالم مرة اخرى وفتحت الدولاب الزجاجى واخذت الحجر السحرى بين يدى .

وجدته دافئا من أثر امساك ايلين به. وعندما اجريت أصابعى حوله شعرت براحة . وايقنت ان هذا الاحساس جعلنى قريبا من ايلين .

ترى هل كان ذلك ايضا احساس ايلين ، ابنتى ، سليلة أسرة هاولى ؟

الفصل التاسع

جاء الربيع يوم الاثنين غادرا ، فقد امطرت السماء فجاة ، وهبت الريح متقطعة لافحة .

وعندما ذهبت لفتح محل البقالة وجدت جو مورفى صراف البنك دقيقا فى موعده ، وقد ابتدرنى قائلا :

ــ سمعت انك كنت فى بيت رئيسى .

ــ انني كنت فى حاجة الى مشورته. وقد دعانى الى فنجان شاى.

ــ الظاهر انها مسألة استثمارات .

ــ ان مارى تريد بعض الأثاث الجديد . وعندما تريد المرأة شيئا فانها تصوره أول الأمر فى صورة الاستثمار المفيد .

ــ قل لى . سمعت ان رئيسك سوف يقوم برحـــلة الى بلاده فى ايطاليا .

ــ لا أعرف . من الغريب انه لم يقم بمثل هذه الرحلة قبل الآن .

ــ ما رايك فى فنجان قهوة عند « فورماستر » ؟

ــ يجب أن أقوم بالكنس . سوف يكون العمل كثيرا بعد عطلة الفصح .

ــ آه ، هيا بنا ، الدنيا بخير . ان الصديق الشخصى لمستر بيكر لابد أن يتسع له الوقت لشرب فنجان قهوة .

لم يبد كلامه غمزا ولا تعريضا . اذ كانت لديه القـــدرة على ازجاء الكلام بلهجة البراءة وحسن القصد .

وعندما استقر بنا الجلوس فى مطعم ومقهى فورماستر قال جو مورفى بين رشفات القهوة مستأنفا كلامه عن مارولو .

ــ لا أعرف كيف خطرت لى هذه الفكرة التى جعلتنى اتساءل عن سر رحلة رئيسك المزمعة . ربما كان السبب هو قوله انه جاء الى هذه البــــلاد منذ اربعين سنة . فى ظنى انه جاء منذ ٣٥ أو ٣٧ سنة . لــكن ليس منذ ٤٠ سنة .

ــ اعتقد انه من الصعب أن اجاريك فى افكارك .

ـ يعنى ان ذلك كان سنة ١٩٢٠ . وفى سنة ١٩٢١ صدر اول قانون للهجرة .

ـ وماذا ؟

ـ فى سنة ١٩٢٠ ممكن وصوله . فى سنة ١٩٢١ غير ممكن .

ـ وماذا ؟

ـ عقلى يقول لى انه دخل البلاد بعد سنة ١٩٢١ من البـــاب الخلفى . وعلى هـــذا لايمكن أن يعود الى ايطاليا لأنه ليس لديه جواز سفر يمكنه من العودة الى هنا .

ـ رباه ! الحمد لله انه ليس لى تفكير اهل البنوك !..

ـ لو كنت منهم لـكنت أحسن منى . فأنا كثير الـكلام ! لوعاد صاحبنا مارو للو الى هذه البلاد لـكنت ساذجا يشار اليه بالبنان . انتظر . سأقوم معك . القهوة على حسابى .

وعاد مورفى يقول لى ونحن نعبر الشارع :

ـ لا تقل لرئيسـك الأفخم انني المحت لك انه سوف يكون «طعما» مغريا لادارة الجوازات والهجرة .

ـ ولم أفعل هذا ؟

ولما وصلنا الى الحارة أخرج مفتاح الباب الخلفى للبنك قائلا :

ـ لنستعد الآن لفتح المعبد المقدس .

فقلت له :

ـ أراك اليوم ياجو مليئا بالغرائب . أن عيد الفصح لم يؤثر فى طباعك .

ـ اننى أعنى ما أقول . فى تمام التاسعة بالدقيقة نقف عاريى الرءوس امام باب المعبد المقدس . وعندئذ يدار القفل السرى ويركع الـكاهن بيكر أمام الخزانة ويفتحها ، ثم ننحنى جميعا فى خشوع امام المعبود العظيم : البنكنوت .

ـ انت مخبول ياجو .

ـ ربما . لعنة الله على هذا القفل . أسهل للانسان أن يفتحه بفمك لا بمفتاحه هذا .

وعالج ادارة المفتاح فى القفل مرات ثم رفسه مرات حتى انفتح اخيرا بعنف . واخرج من جيبه قطعة من الورق القوى وحشرها فى ثقب القفل . فكدت أن أقول له أليس فى هـــذا خطورة ، لـكنه استبقنى الى الرد قائلا :

ـ ان هذا القفل الملعون لا يغلق بسهولة . وبالطبع فان بيكر

يتأكد بنفســـه بعد فتح الخزانة . لا تذكر شكوكى لماروللو ، فهو انسان حقود .

ــ حسنا ياجو . سأفعل كما قلت .

وتحولت الى باب محل البقالة الخلفى فى الجانب الآخر للحارة . وفى الداخل بدا المحل متغيرا وجديدا فى نظرى. ولم لا، اذا تغيرت النظرة الى شىء بدا جديدا فعلا .

كان صمام « السيفون » فى « التواليت » الصغير مختلا، ولهذا كان ينبعث منه صوت هسيس خفيف مستمر ، ولم يهتم ماروللو بتغيير الصمام لأن استهلاك الميـــاه لم يكن مقننا . وعندئذ ذهبت الى الميزان العتيق وجئت منه بصنجة مثقوبة زنة رطلين وعلقتهـــا فى سلسلة « السيفون » ، فتدفق المـــاء فى « التواليت » بقوة واستمر يتدفق . ولمـــا يممت شطر الباب الأمامى لـكى أنصت سمعت الصوت واضحا لاشك فيه . كان صوتا لا تخطئه الأذن . وبعـــد أعدت الصنجة الى مكانها من الميزان وجلست الى مكانى خلف المنصة . واسترعى نظرى بين المعلبات قناع الفأر ميكى ماوس يبتسم من فوق علبة الحبوب ، فتذكرت وعدى لابنى آلان ، ومددت الحامل الى الرف وأنزلت علبة الحبوب ووضعتها تحت سترتى فى المخزن . ولمـــا عدت الى مكانى خلف المنصة كان الفأر التالى يبتسم لى من فوق علبته.

ومدت يدى خلف المعلبات واخرجت كيس « الفكة » الصـــغيرة ووزعتها فى أدراجها الصغيرة فى مسجلة النقد . وعندئذ تذكرت شيئا آخر ، فمددت يدى الى مسافة أقصى حتى عثرت على المســـدس العتيق عيار ٣٨ الذى ظل فى موضعه هذا منذ عهد طويل. ولما فتحته وجدت الرصاص مخضرا من الصدأ . وكانت خزانته بطيئة تتحرك بصعوبة . فوضعت السلاح الـكريه وربما الخطر فى الدرج أســـفل مسجلة النقد ، ثم جذبت « مريلة » نظيفة ولففتها حول وســـطى وربطت أطرافها .

الا ما أعجب تصاريف الأيام . من منا لم يفكر فيها ويتساءل ان كانت الأحداث التى تعرض لنا وليدة مخطط مرسوم أم هى من ثمار تصوراتنا وأحلام اليقظة التى تعرض لنا ؟ لكننى أعلم اليقين منذ متى بدأت العب لعبة التصورات لأننى أعرف كيف بدأت بما سمعته من جو مورفى عن الشروط التى يراها لنجاح عملية سرقة بنك . منذ تلك اللحظة لم انقطع عن استعادة هذه الـكلمات بما هو أقرب الى السرور الصبيانى . وكانت اللعبة تمضى متوازية مع مجرى

العمل فى المحل ، وكل ما كان يحدث بدا وكأنه تأكيد لواقعها : « التواليت » الذى يتسرب منه الماء ، وقناع الفأر ميكى ماوس الذى طلبه آلان ، وكيفية فتح خزانة البنك ، وقطعة الورق المحشورة فى قفل باب البنك الخلفى فى الحارة ... كانت اللعبة تنمو وتتضخم بمضى الوقت ، ولكنها ظلت مع ذلك فى نطاق التخيل حتى صباح اليوم . فكان وضع الصنجة فى سلسلة « السيفون » هو أول اسهام مادى فى اللعبة ، وكان اخراج المسدس القديم هو الاسهام الثانى . وبدأت الآن أفكر فى توقيت العملية . وهكذا اكتسبت اللعبة الطابع الدقيق المحدد .

انني مازلت أحمل ساعة أبى الأثرية ذات العقارب الغليظة والأرقام الكبيرة السوداء ، وهى ساعة عجيبة تبين الوقت بدقة . وفى صباح اليوم وضعتها فى جيب قميصي قبل أن ابدأ كنس المحل . وقد راجعت الوقت بدقة ، فما كادت الساعة تؤذن بالتاسعة الا خمس دقائق حتى فتحت أبواب المحل الأمامية وأخذت أضرب بالمكنسة أولى الضربات على الرصيف لازالة ماتراكم من قاذورات خلال عطلة العيد .

ان بنكنا مؤسسة عجيبة حقا ، مثل ساعة أبى! ففى تمام التاسعة الا خمس دقائق ظهر مستر بيكر قادما من شارع ايلم . ولابد ان موظفى البنك هارى روبين واديث آلدن كانا يراقبان حضوره . فقد أسرعا بالخروج من مطعم ومقهى فورماستر وانضما اليه فى منتصف الطريق .

قلت : صباح الخير يامستر بيكر . صباح الخير يا اديث . صباح الخير ياهارى .

فرد على قائلا :

ـ صباح الخير يا ايثان . انت محتاج الى خرطوم لتنظيف هذا المحصول !

ودخل ثلاثتهم الى البنك .

أسندت المكنسة فى مدخل المحل ، وأخذت الصنجة من الميزان ، وذهبت الى ما خلف مسجلة النقد وفتحت الدرج وبدأت سلسلة سريعة من الحركات التمثيلية الصامتة . فسرت الى المخزن ، وعلقت الصنجة فى سلسلة « التواليت » ، ورفعت طرف « المريلة » وعلقتها فى حزام الوسط ، ولبست معطفى الواقى من المطر ، ثم سرت الى الباب الخلفى وواربته . وما أن انطلق عقرب ساعتى الأسود على

رقم ١٢ حتى بدأ جرس مبنى المطافىء يرن مدويا مؤذنا بتمام الساعة التاسعة . فجعلت أحصى فى ذهنى ثمانى خطوات عبــر الحارة ثم عشرين خطوة . وحركت يدى ولـكن لم أحرك شفتى ، وسمحت بمرور عشر ثوان ثم حركت يدى مرة أخرى . كل هذا كنت أتمثله فى ذهنى : عشرون خطوة ، ثم ثمانى خطوات ، كلها سريعة قاصدة ، وبعد ذلك اغلقت باب الحارة ، وخلعت معطفى ، وعدلت «المريلة» ، ودخلت « التواليت » ، ورفعت الصنجة من السلســلة وأوقفت تدفق الماء ، ثم عدت الى خلف مسجلة النقد ، وفتحت الدرج ، وفتحت العلبة التى اضع فيها قبعتى ثم أغلقتها وحزمتها بالرباط ، ثم عدت الى المدخل ، واخذت المكنسة ، ونظرت الى الساعة : رأيتها جاوزت التاسعة بدقيقتين وعشرين ثانية ... نتيجة طيبة.. لـكن مع تكرار العملية والتمرين يمكن اختصار الفترة الى أقل من دقيقتين .

وما كدت أفرغ من كنس نصف الرصيف حتى جاء ستونى رئيس نقطة البوليس خارجا من مطعم ومقهى فورماستر . وقد قال لى :

ــ صباح الخير يا ايثان . اريد نصف رطل زبدة ، ورطل لحم مقدد ، وزجاجة لبن ، وعشر بيضات . ان زوجتى خلت من كل شيء.

ــ حاضر . كيف حال الدنيا ؟

فأجاب وانا أعد له المطلوب :

ــ بخير . جئت منذ دقيقة ولـكن سمعتك فى « التواليت » .

ــ سيمضى أسبوع قبل أن اتخلص من كل ذلك البيض المسلوق الذى أكلناه فى العيد .

ــ هذه هى الحقيقة . ومع ذلك لابد للانسان أن يأكل ليعيش .

كانت هذه النتيجة طيبة .

وقبل أن ينصرف قال لى :

ــ ما أخبار صاحبك دانى تيلور ؟

ــ لا اعرف . هل ارتكب مخالفة ؟

ــ لا . انه بدا فى حالة طيبة ، وكان نظيفا بصورة معقولة. كنت جالسا فى سيارة « الدورية » ، فطلب منى أن أشهد على توقيعه .

ــ عن أى شيء ؟

ــ لا أعرف . كانت معه ورقتان ، ولـكنه قلبهما لـكيلا أرى ما هما .

ــ ورقتان ؟

ـ نعم . وقد أمضي مرتين ، وشهدت على أمضائه مرتين .
ـ هل كان صاحيا ؟
ـ بدا كذلك . وكان محلوق الشعر وعليه ربطة عنق .
ـ ليتنى كنت أستطيع ان أصدق هذا !
ـ وأنا مثلك . مسكين . ربما كانت هذه محاولة للانصلاح . لابد ان اعود الآن الى البيت .

وبعد انصرافه أتممت الجزء الأكبر من عملية الكنس وأنا اشعر بالضيق .

ربما كانت المحاولة الأولى هى الأصعب .

لم ينقطع « الزبائن » عن الحضور افرادا وجماعات .

وحوالى الساعة العاشرة جاء ماروللو ، ومن عجب انه مد يد المساعدة وأخذ يزن ويغلف ويدق مسجلة النقد . انه لم يفعل هذا منذ فترة طويلة . وخيل الى انه كان نهبا للقلق واخذ يتأملنى خلسة كلما أدرت نظرى عنه . وحسبت أن هذا ربما كان من تأثير رفضى لعملية الرشوة . هكذا بعض النــاس . اذا اريتهم أمانتك ذهبوا يستقصون فيك خواف الخيانة التي حدت بك الى مســلوك مسلك الأمانة ! ان هذه الفكرة أضحكتنى فى نفسى ، لكننى لم أبد أدنى بادرة ظاهرية .

وحوالى الساعة الحادية عشرة جاءت زوجتى مارى وهى تتلألأ فى فستان قطنى جديد ملون . وقد بدت جميلة سعيدة ولـكنها كانت تلهث كما لو كانت قد فعلت شيئا سارا ولـكن خطرا . وهى قد فعلت هذا حقا . فانها اعطتنى مظروفا بنيا من ورق ماتيلا السميك . وقالت لى :

ـ أظن انك ستحتاج الى هـــذا .

ورمت ماروللو بابتسامة عابرة . انها لم تكن تحبه أو تثق فيه وربما كان هذا لأن الزوجة لا تحب رئيس زوجهـا أو سكرتيرته الخاصة !

قلت لها :

ـ اشكرك . انت بعيدة النظر. آسف اذ لايمكننى أن أذهب معك فى نزهة فى الليــل !
ـ انت مشغول فعلا .
ـ حسنا . الم يخل البيت من كل شيء ؟
ـ صدقت . معى كشف باللوازم . هلا أحضرتها معك فى المساء ؟

اعرف انك مشغول جدا ولا يمكنك تجهيزها الآن .
ـ لكن لا تطلبي شيئا من البيض المسلوق .
ـ ابدا يامزيزي . لسنة كاملة . بالمناسبة . مارجي تريد اخذنا للعشاء في مطعم فورماستر الليلة . قالت أنها لم تدعنا قبل ذلك .
ـ جميل .
ـ قالت ان شقتها ضيقة جدا .
ـ صحيح ؟
ـ انني أعطلك عن العمل .
كانت نظرات مارولو مسلطة على الظروف البني في يدي لم تفارقه لحظة ، فوضعته خلف « المريلة » ودسسته في جيبي . كان يعلم انه مظروف بنوك ، وكان بوسعي أن أشعر ان عقله ذهب يستقصي، وينبش مثل كلب يتصيد الفئران في مستودع قمامة .
وبعد انصراف ماري تزايدت حركة البيع . واطل مستر بيكر برأسه ولما رأى الصف الطويل المنتظر للدور خرج قائلا :
ـ سأمر فيما بعد .
ولم تتوقف حركة العمل الا في فترة الظهر ، عندما انصرف الناس كلهم الى تناول وجبة الغداء الخفيفة ، وتوقفت حركة المرور . حينئذ اخذت اشرب حقية زجاجة اللبن التي كنت خصمتها . لان كل شيء كنت آخذه من المحل لي او للبيت كنت ادونه في الحساب ثم اخصمه من أجري . وكان مارولو يسمح لي بأن احصل على لوازمي بسعر الجملة . وهذا فارق كبير . وأظن انني ما كنت استطيع العيش بأجري لو لم يفعل ذلك .
قلت له وقد جلست متكئا على المنصة :
ـ اشكرك للمساعدة . انني لم ار ابدا مثل هذه الحركة .
ـ انت فتى طيب . وهم يحبونك .
ثم بدا لي أن أقوم بجس النبض ، فقلت :
ـ اراهن انك تتطلع الى شمس جزيرة صقلية . انني كنت هناك في زمن الحرب .
فأشاح عني قائلا :
ـ انني لم اقرر بعد . فقد تغيبت طويلا اربعين سنة . ولا اعرف احدا هناك .
ـ ليتني كنت استطيع ان انال اجازة في ايطاليا ـ بغير بندقية

ولا ملابس ميدان . ان أربعين سنة مدة طويلة فعـــلا . فى اى سنة جئت ؟

ـ ١٩٢٠ ... مدة طويلة .

بدا ان جو مورفى اصاب كبد الحقيقة ، وربما كان رجال البنوك والشرطة والجمارك هم أصدق الناس غريزة .

ثم خطر لى ان أقوم بعملية جس نبض اخرى أعمق . ففتحت الدرج واخرجت المسدس والقيته على المنصـــة . فوضع مارولو يديه خلف ظهره قائلا :

ـ ما هذا يا فتى ؟

ـ خطر لى انك ربما تريد استخراج ترخيص بهذا ان لم يكن له ترخيص . ان قانون احراز الأسلحة صارم .

ـ من أين لك به ؟

ـ انه كان هنا طول الوقت .

ـ انني لم اره أبدا . انه لايخصني . انه يخصك .

ـ لايخصني . وانا أيضا لم اره من قبل . ونظرا لوجوده هنا ، ألا ترى ان الأفضل هو الحصول على ترخيص ؟

ـ قلت لك انني لم اره أبدا . انني لا احب الأسلحة .

ـ هذا مضحك.كنت أظن‌ان رجال المافيا الكبار يحبون‌الأسلحة.

ـ ما قصدك ؟

فتظاهرت بضحكة رنانة بريئة قائلا :

ـ كنت أسمع ان جميع أبناء صقلية هم من المافيا .

ـ كلام مجانين . انا لا اعرفه حتى ما هي المافيا ؟

فاعدت المسدس الى الدرج وقلت :

ـ من‌يعش يرى . على كل حال ربما أقدمه الى ستونى واقول له انني وجدته متروكا خلف اى شيء ، وهذا ما حدث فعلا .

ـ افعل هـــذا . انني لم اره فى حياتى . ولا اريده . وهو لايخصني .

ـ حسنا . ليكن ما تقول .

هكذا زرعت الخوف فى نفس رئيسى . فان استخراج ترخيص باحراز سلاح يتطلب اجراءات مطولة ـ تماما مثل اجراءات استخراج جواز سفر .

مهما يكن فقد تمالك مارولو . وعاد يقول :

ـ انت فتي طيب . وصديق مخلص أيضا .

ــ هذا ما كان يقوله جدى الاكبر ، الـكابتن هاولى .
ــ اننى امضيت طول يوم الأحد افـكر .
كنت أعلم انه قلق بصدد مسألة « الخمسـة فى المائة » ، فواجهته بها فورا اختصارا للوقت .
ــ تقصد حكاية الخمسة فى المائة ؟
فنظر الى باعجاب قائلا :
ــ نعم . انت ذكى ايضا .
ــ لست من الذكاء مع ذلك بحيث أشتغل لحسابى .
ــ انك عملت هنا مدة طويلة ــ ١٢ سنة .
ــ صحيح. مدة طويلة. وهى كافية لحدوث تغيير ، الا ترى هذا ؟
ــ وانت لم تختلس شيئا من « الفكة » ، ولم تأخذ معك لوازم البيت دون تقييدها فى الحساب .
ــ ان الأمانة فى طبعى .
ــ لا تمزح . اننى اقوم بالمراجعة ، واعرف .
ــ يمكنك ان تعلق « ميدالية » على صدرى .
ــ كل الناس تسرق ــ بعضهم اكثر وبعضهم اقل . لكن انت لا.
ــ ربما كنت انتظر لـكى اسرق « البضاعة » كلها !
ــ لا تمزح . ان ما اقوله هو الحقيقة .
ــ الفيو . عندك جوهرة . فلا تدعها كثيرا ، والا انكشف زيفها.
ــ لماذا لا تشاركنى فى المحل ؟
ــ بأى شىء ؟ بماهيتى ؟
ــ سندبر هذا بطريقة ما .
ــ وعندئذ لايمكننى أن اسرق منك دون أن اسرق نفسى !
فضحك تقديرا ، وقال :
ــ انت غاية فى الذكاء يافتى . لـكنك مع ذلك لا تسرق .
ــ ان كنت تعنى ما تقول ، فعليك ان تفكر فى طريقة اتمكن بها من المشاركة ، وسابحث المسالة . لـكننى احذرك ــ فاننى لا أملك مالا .
ــ سندبر هـــذه المسالة .
ــ لـكن سوف يكون لى مالٌ فيها بعد .
سلط نظراته على طويلا ، وقال بصـــوت خافت :
ــ كذا ! كذا ! على كلّ حالّ انت ولد طيب .
وهز يدى مصافحا ثم خرج على الأثر .

على انه عاد ثانية وقال بانفعال :
ـ لك ان تأخذ ذلك المبلغ .
ـ اى مبلغ ؟
ـ الخمسة فى المائة .
ـ لماذا ؟
ـ لك ان تأخذه . يمكنك ان تشاركنى فى المحل بمبالغ صغيرة ، فقط عليك ان تطالب بستة فى المائة .
ـ لا .
ـ ماذا تقصد بقول لا ، اذا كنت انا اقول نعم ؟
ـ لست فى حاجة اليه يا الفيو . لو كنت فى حاجة اليه لاخذته ، لكننى فى غير حاجة .
فزفر من أعماقه .
لم يكن العمل متواصلا فى فترة المساء كما كان فى الصباح . وفى فترة الركود فيما بين الثالثة والرابعة جاء مستر بيكر . وقد انتظر برهة حتى انصرف آخر « زبون » ، وقال لى :
ـ هل عرفت يا ايثان ان مارى سحبت ألف دولار ؟
ـ نعم ياسيدى . قالت لى انها ستفعل ذلك .
ـ هل تعرف لماذا تريد المبلغ ؟
ـ بالتأكيد ياسيدى . انها كانت تتكلم عن هذا منذ شهر . انت تعرف النساء . تجديد الاثاث دائما .
ـ الا تظن ان من البلاهة صرف المبلغ فى هذا ؟ قلت لك أمس انه سيفتح الباب لشىء .
ـ هذا مالها ياسيدى .
ـ لم اكن اكلمك عن بعشرة المال يا ايثان . كنت اكلمك عن استثمار مضمون . فى رأيى انه بالالف دولار هذه يمكنها تجديد الاثاث فى خلال سنة مع بقاء الالف دولار كما هى .
ـ لايمكننى يامستر بيكر منعها من انفاق مالها الخاص .
ـ الا يمكنك اقناعها يا ايثان ؟
ـ لم يخطر هذا ببالى .
ـ حاول يا ايثان ان تجعلها تعيد ايداع المبلغ فى البنك . او قل لها ان تضع المبلغ فى يدى . انها لن تندم على هذا أبدا .
ـ انه مال آل اليها من اخيها ياسيدى .
ـ أعرف هذا ، انك تخيب ظنى فيك يا ايثان . اذا كنت تريد

أن تكون لك قيمة فلابد ان تكون صاحب الكلمة فى بيتك . وفى الامكان تأجيل شراء الأثاث الجديد فترة اخرى .

ـ بامكانى هذا . لكن ليس بامكانها .

وخطر لى فى هذه اللحظة ان رجال البنوك لهم اعين بها اشعة اكس تكتشف النقود ، وانه ربما كان يرى فى هذه اللحظة الظروف البنى من خلال ملابسى . فاضفت قائلا :

ـ سوف أحاول اقناعها يامستر بيكر .

ـ هذا اذا لم تكن انفقت الألف دولار فعلا . هل هى الآن فى البيت ؟ ..

ـ قالت انها ستركب الأتوبيس الى بلدة « ريدجابتون » .

ـ ياالله السموات! اذن فقد ضاع الألف دولار فى صالات المزادات!

ـ حسنا . لايزال عندها بعض مال آخر .

ـ ليس هذا بيت القصيد . أن أملك الوحيد هو المال .

ـ المال يجلب المال ، كما قلت .

ـ بالضبط . ضع هذا نصب عينيك ، والا بقيت بائعا فى محل بقالة طول عمرك !

ـ أنا آسف لهذا ياسيدى . هل تحب زجاجة « كوكا »؟

ـ نعم . على بها .

ولم يكن بامكانه ان يشرب من الزجاجة ، فجئت بكوب وافرغتها له ، فشربها كارها وشرب معها غضبته . وقال فى النهاية وهو ينصرف متجها الى بيته :

ـ كلمها واقنعها !

عجبت لمسلكه . ترى هل اهتاج لارتيابه فى الأمر ؟ لم ارجح هذا . اغلب الظن ان اهتياجه كان بسبب عصيان امره وهو الذى اعتاد أن يأمر فيطاع ، ويبذل النصح للانسان فينصاع !

وقبيل موعد اغلاق المحل اتصلت تليفونيا بمارى وقلت لها :

ـ يانزهة النفوس ! سوف اتاخر قليلا .

ـ لاتنس اننا سنتناول العشاء مع مارجى فى مطعم فورماستر.

ـ انا متذكر .

ـ الى متى تتاخر ؟

ـ من عشر دقائق الى ربع ساعة . سأتمشى الى الميناء للفرجة على مركب تطهير القاع .

ـ لأى سبب ؟

ـ انني أفكر في شرائها .
ـ لك أن تهرول . لكن لا تتأخر . فلابد أن تغتسل وتغير ملابسك . مطعم فورماستر كما قلت لك .
ـ لن اتأخر ياحبة قلبي ومهجتي ! ان مستر بيكر حمل على حملة شعواء لأنني تركتك تنفقين الف دولار .
ـ وما دخل هذا التيس العجوز ؟
ـ ماري !.. ماري !.. الجدران لها آذان !
ـ قل له ان يذهب الى حيث !
ـ لن يذهب . وفضلا عن هذا فهو يعتقد انك مغفلة .
ـ ماذا ؟
ـ ... وانني زوج هزيل ـ وانت تعرفين من انا !
فاطلقت ضحكتها العذبة التي طالما اسكرتني ، وقالت قبل أن تضع السماعة :
ـ اسرع الى البيت ياحبيبي . اسرع !
لم تكن وجهتي الميناء ذاته ، ولكن كشك داني تيلور المجاور للميناء ... ولما اقتربت منه أخذت أصفر لحنا قديما يعرفه .
كان الكوخ خاويا ، لكنني كنت واثقا انه كان مختبئا بين الحشائش الطويلة أو بين كتل الأخشاب الضخمة التي كانت ملقاة فيما حول المكان . ولما كنت اعرف انه سوف يعود الى الكوخ حالما انصرف ، فقد أخرجت المظروف البني من جيبي ووضعته فوق فراشه القذر ، ثم ابتعدت ومازلت أصفر ، فيما عدا لحظة ناديت فيها بصوت خافت : « الى اللقاء ياداني . حظا سعيدا » .
وتابعت طريقي وانا اصفر الى الشوارع المطروقة حتى وصلت الى بيتي وبيت آل هاولي .
وجدت ماري بادية الانفعال وهي تستعد لوليمة العشاء في مطعم فورماستر . ولا أذكر اننا خرجنا يوما للعشاء في مطعم ، فان هذا ليس في طاقتنا ، وقد نسينا هذه العادة .
كانت ماري منهمكة في كي الملابس وفي اصدار مختلف الأوامر والنواهي للأولاد للتصرف في نطاقها في فترة غيابنا عن المنزل ، حتى ان الأولاد انفسهم كانوا يراقبون ما يجري مبهورين .
كنت املك اربع بذلات ـ وهي عدد كاف لبائع في محل بقالة ، وكانت جميعا مصفوفة على الكراسي بعد كيها . ولما سالت ماري ايها البس اجابت :

ـ اظن ان الأفضـــل ان تلبس البذلة « دوريان جراى » ، فالمناسبة رسمية وغير رسمية .
ـ مع ربطة العنق المنقطة ؟
ـ طبعا .
ولـــكن ايلين تدخلت قائلة :
ـ بابا ! لا تلبس ربطة عنق منقطة ! فانت عجوز .
ـ لست عجوزا . أنا شاب ، ومرح ، وطائش !
ـ سوف تكون مثل اللقلق الضاحك ! الحمد لله اننى لن اشترك فى الوليمة !
ـ وأنا احمده أيضا . من اين جئت بفكرة اننى لقلق عجوز ؟
ـ لابأس . أنت لست عجوزا ، لـكنك عجوز بالنسبة لربطة عنق منقطة .
ـ انت بنت متزمتة ! مارى . هل ترين اننى سأشـــبه اللقلق الضاحك ؟
ـ دعى اباك وشانه ، فلابد له ان يغتسل . اننى وضعت قميصك على السرير .
وقال آلان :
ـ اننى انجزت نصف موضوع مسابقة « أحب أمريكا » .
ـ هذا بديع . لأننى انوى عند دخول الصيف أن إجعلك تشتغل .
ـ اشتغل ؟
ـ فى المحل .
ـ آه !
قالها آلان دون تحمس كبير .
وفى نفس الوقت شهقت ايلين نصف شهقة ، لـكنها لم تقل شـــيئا . فان مارى راحت تكرر للمرة الثمانين الأوامر والنواهى التى يتعين على الاثنين اتباعها فى فترة غيابنا عن البيت .
وبينما كنت منهمكا فى عقد ربطــــــة عنقى دخلت ايلين ووقفت مستندة الى الباب قائلة :
ـ بابا . هل من الغش أن ينقل الانسان شيئا من كتاب ؟
ـ فسرى كلامك .
ـ لوكنت اكتب موضوعا ونقلت من كتاب بعض ما فيه ـ فما رايك فى هـــذا ؟
ـ لو وضعت اقواســـا حول المـــادة المنقولة وملاحظة فى ذيل

الصفحة تبين من هو المؤلف ، لكان فى هـذا ارتقاء بما تكتبين وسندا له . وفى ظنى ان نصف ما يكتب فى أمريكا هو مقتبسات اذا لم يكن مختارات أدبية . والآن هل اعجبتك ربطة عنقى ؟

ــ لنفرض انك لم تضع هذه الأقواس ...

ــ اذن تكون المسألة سرقة مثل أى نوع آخر من السرقات . لا اظن انك فعلت هذا ؟

ــ لا .

ــ اذن فما هى مشكلتك ؟

ــ هل يمكن أن يزجوا بك فى السجن ؟

ــ ربما ، اذا اخذت نقودا عن الكتابة . لا تفعلى هذا يابنتى. والآن مارايك فى الربطة ؟

ــ اظن ان مظهرك لا يطاق !

ــ قولىلأخيك اننىجئت له بقناع الفار ميكى ماوس ، قبحه الله!

كانت مارى بعد انتهائها جميلة ورائعة . وقد تأبطت ذراعى مزهوة ونحن نسير فى الشارع تحت الأضواء بخطا ثابتة حتى كنا كفرسى سباق يتقدمان الى الحاجز استعدادا للشوط الكبير.

قلت لمارى :

ــ سوف نخرج كثيرا ياحبيبتى .

ــ متى ؟

ــ عندما نصبح من الأغنياء .

ــ ومتى يكون هـذا ؟

ــ قريبا . وساعلمك كيف تلبسين الاحـذية .

ــ وهل تشعل سيجارك باوراق بنكنوت فئة ١٠ دولارات ؟ ..

ــ فئة عشرين .

ــ كم أحبك .

ــ عيب ياسيدتى . لايصح أن تقولى هذا . انك تخجلينى .!

وكانت مارجى فى انتظارنا فى المطعم ، وقد بدت مضيفة حتى اطراف بنانها . وقدمت الينا صديقا لها من نيويورك يدعى مستر هارتونج ، وكان صورة لأبناء المدن والعواصم بأناقتـه المفرطة ، وزاد عليها تعقيبه على كل شىء بضحكة يعرب بها عن تقديره لما يسمع ، حتى اننى لمـا قلت له : « ارجو أن تعرف ان صديقتك ساحرة » ــ اطلق أولى ضحكاته .

وقالت مارجى :

ـ اننيطلبت تخصيص مائدة لكم بجوار النافذة ، هيالتيهناك .
ـ كما انك طلبت وضع زهور خاصة يا مارجي .
ـ ماري . لابد لي أن أفعل اى شيء ردا لطيبتك ومعروفك .
وكانت المائدة جميلة حقا ، وادواتها بيضاء كالفضة وان لم تكن فضة . وقالت مارجي :
ـ أنا المضيفة ، ومعنى هذا انني الرئيسة . وقد امرت بتقديم كئوس « المارتيني » أردتم أم لا .
فضحك مستر هارتوج .
وبعد أن شربنا الكأس الأولى قالت مارجي :
ـ سيشرب كل منا كأسين . ان الطعام هنا ممتاز .
ولما قلت لهم انني فكرت مرة فى فتح « بار » حيث يستطيع الانسان أن يشرب الكأس الثانية دون حرج وحيث أستطيع تكوين ثروة ـ ضحك مستر هارتوج أيضا .
وبتقديم الكأس الثانية بدأ مستر هارتوج يتكلم ، وكان صوته خافتا رخيما متموجا كصوت مغن أو ممثل أو مندوب مبيعات لصنف لايريده الناس ، فقال :
ـ أخبرتني مسز يونج هانت انك تعمل هنا . هذه فى الحقيقة بلدة جميلة بخيرها .
وكنت على وشك ان احدد له نوع عملى بالضبط عندما تلقفت مارجي الكرة قائلة :
ـ ان مستر هاولي هو القوة القادمة فى هذه الولاية .
ـ كذا ؟ ماهو تخصصك يامستر هاولي ؟
فتولت مارجي البيان قائلة :
ـ كل شيء . كل شيء تماما ، لكن ليس بصورة معروفة للجميع .
رايت فيعينيها بريق الشراب ، ولما نظرت الىعيني ماري رأيتهما مسطحتين ، فادركت انهما تناولتا كأسا قبل حضوري ، أو هى مارجي على الأقل .
قلت ردا على كلمات مارجي :
ـ ان هذا يوفر على انكار ما قالت .
فعاد مستر هارتوج الى ضحكته ، قائلا :
ـ ان لك زوجة رائعة . وهذا نصف المعركة .
ـ بل هو المعركة كلها .
ـ ايثان ! ستجعله يظن اننا نتقاتل !

– آه . هذه هي الحقيقة .
وتجرعت نصف الكاس . فشعرت بالحرارة تتصاعد حتى اذني. وسمعت صوتي يواصل الكلام ، وجعلت انصت الى نفسي من خارج نفسي وانا اقول :
– ان مسز مارجي هي ساحرة الشرق .
– آه يامويزي. انهاكانت شريرة. وانا لا احب ان اكون شريرة.
وبدا لي انني ارى من خلال زجاج النافذة الملون الذي يعكس الصور متطاولة داني تيلور يسير على الرصيف . فرأيتني اثب واجرى خلفه ، ولكنه اختفى من نظري في حديقة مجاورة ، وسمعتني انادي في اثره : داني ! داني ! رد الى المبلغ ! « لاتاخذه ياداني ! انه مسمم ! انني سممته ! » ...
وسمعت ضحكة . وكان الضاحك مستر هارتوج . فمسحت الدموع من عيني بفوطتي وقلت افسر لهم :
– كان يجب ان اشرب الكاس، لا اغسل عيني بها . انها تحرقني.
فقالت ماري :
– ان عينيك حمراوان تماما .
ولم استطع ان اعود الى رفاق الوليمة ، ولكنني سمعت نفسي اتكلم واحكي قصصا ، وسمعت ماري تضحك ، واذن فلابد انني كنت ظريفا فكها مثيرا للضحك والطرب ، ولكنني لم استطع قط ان اعود الى رفاق الوليمة . واظن ان مارجي عرفت هذا ، فقد ظلت تنظر الى وفي عينيها سؤال خفي ، لعنها الله . انها ساحرة فعلا .
ولا اعرف ما الذي اكلناه . واتذكر انه قدم الينا نبيذ ابيض ، واذن فلابد انه سمك . وجيء لنا بالبراندي . واذن فلابد انني شربت قهوة ... ثم انتهت الوليمة .
وفي خروجنا سبقتنا ماري ومستر هارتوج ، فقالت لي مارجي :
– الى اين ذهبت عنا ؟
– لا اعرف قصدك .
– انك ذهبت بعيدا . كنت معنا بجزء فقط منك .
– اغربي عني يا ساحرة !
– كما تشاء ياعزيزي .
وفي طريقنا الى البيت رحت افتش ظلال الحدائق . وتعلقت ماري بذراعي وكانت خطواتها مترنحة ، وقالت :

ـ يالها من مناسبة لطيفة ! انني لم اعرف الطف منها .
ـ كانت لطيفة فعلا .
ـ ان مارجي مضيفة كاملة .
ـ هذا شيء مؤكد .
ـ وانت يا ايثان . كنت اعرف انك ظريف احيانا ، لكنك جعلتنا نضحك طول الوقت . وقال مستر هارتوج انه ضعف من كثرة الضحك .

وفي مدخل بيتنا احتضنت ماري بقوة حتى تأوهت وقالت :
ـ تماسك ! سوف توقظ الأولاد !

كان في نيتي ان انتظر حتى تنام ماري ثم انسلل خارجا لكي اذهب الى كوخ داني وابحث عنه ، حتى ولو ارسلت البوليس في اثره . لكنني راجعت نفسي . لقد ذهب داني . وتمددت في الظلام وجعلت اراقب البقع الحمراء وهي تسبح امام عيني الى غير ما نهاية .

الفصل العاشر

ان قاعدة تمبلتون الجوية لا تبعد أكثر من حوالى اربعين ميلا من بلدتنا نيوبايتون ، وهو ما يوازى طيران نحو خمس دقائق بالطائرات النفاثة . ان أسراب هذه البعوضات الفتاكة تسمعنا هديرها بانتظام . وليته كان بوسعي أن أعجب بها بل احبها على طريقة ابنى الآن . ولو كان لها أكثر من غرض واحد فربما منحتها اعجابى وحبى ، ولكن غرضها الأوحد هو القتل والتدمير ، وهذا ما شبعت منه الى حد التخمة . انها تخترق حاجز الصوت بهدير قاصف يخيل الى معه كأن الجحيم تفجرت . وعندما تمر بنا ليلا فانها تتخلل أحلامى فاستيقظ محزونا مغموما كأن روحى ذاتها قد تقدحت وتصدعت .

وفى بكرة هذا الصباح انطلق سرب منها هادرا مجلجلا حتى استيقظت من نومى منتفضا واعشبا . ولبثت ممددا فى الفراش وعرق الخوف يبللنى وأنا انصت الى نذر الشر والهلاك هذه وهى تعول متباعدة فى الفضاء . ولم اتمالك ان تصورت كيف ان هذه الرجفة التى عرتنى انما تسرى فى أعماق كل انسان فى هذه الدنيا . وليست هى نفاثات الهلاك فى ذاتها ، بل هو غرضها التدميرى المريع .

ان مشكلة ما اذا تفاقمت واستفحلت ، فان أبناء البشر يحتمون منها بعدم التفكير فيها . لكنها تغوص فى الأعماق وتمتزج بكثير من غيرها من المشاكل والمسائل القائمة فعلا ، وما يخرج من هذا ويبرز الى السطح هو القلق ، والسخط ، والتألم ، والانبعاث الى عمل شيء — اى شيء — قبل فوات الأوان . ويخيل الى ان كل انسان تقريبا أراه مضطرب الأعصاب متوتر بالقلق مصطنع للمرح والصخب كأولئك الذين يلتمسون السكر عشية رأس السنة . وما أحرى علماء التحليل النفسى الذين يتصدون بالتحليل الى العقد النفسية الفردية أن يتصدوا بالتحليل والتماس العلاج لمشكلات العصر التى تنذر شرورها النووية بالقضاء على البشرية كلها .

وما لبث سرب آخر من النفاثات أن تفجر خلال حاجز الصوت .

لقد مضى علينا ما يقرب من نصف مليون عام حتى أصبحت النار معهودة لدينا ، ثم أقل من خمسة عشر عاماً للتفكير فى هذه القوة النفاثة التى هى أشد من النار ضراوة وعنفوانا . فهل تتهيأ لنا الفرصة لاخضاع هذه القوة والافادة منها . واذا كانت قوانين التفكير والمنطق هى قوانين الأشياء ، فهل يمكن أن يحدث الانشطار النووى فى النفس البشرية ؟ وهل هذا ما يعرض لى الآن ، ولنا جميعا ؟ ..

انى أتذكر قصة حكتها لى عمتى ديبورا منذ زمن طويل ، مؤداها انه حدث فى القرن الماضى وهى طفلة صغيرة أشيع ان نهاية العالم سوف تكون فى موعد معين . فقام أبواها بتوزيع كل مايمتلكون فيما عدا ملاءات السرير التى التفوا بها ، وفى الموعد المتنبأ به انطلقوا الى التلال لمواجهة نهاية العالم . ووقف مئات الناس وهم ملتفون بهذه الأغطية يصلون ويرتلون الأناشيد . وعندما حل الليل بهم زادوا صلاة وترتيلا ، فلما اقترب الموعد مرق نجم فى الفضاء فرفع كل انسان عقيرته بالصراخ هلعا . ثم حلت اللحظة المنتظرة ، فاحتبست الأنفاس فى صدور الرجال والنساء والأطفال وهم مدثرون بأغطيتهم البيضاء . لقد جاءت اللحظة ثم انقضت ، واذا هم قد خدعوا فى الفناء المزعوم . وما أن بزغ الفجر حتى تسللوا يهبطون التلال وما منهم الا من ذهب يحاول استرداد ما وزعوه من ملابس ومقتنيات شملت كل ما كان لهم من حطام الدنيا!

فى ظنى انتى لم استرجع هذه القصة الا بسبب النفاثات — تلك التى هى وليدة جهود هائلة وارصدة جبارة من الوقت والمال لتكديس مخزون احتياطي من اسلحة الموت والدمار . فهل ترانا نشعر بأننا قد خدعنا فى الموت لو اننا نبذنا اسلحة الهلاك ولم نستخدمها قط ؟ ان لدينا القدرة على اطلاق الصواريخ فى الفضاء ، ولكننا بغير قدرة على شفاء نوازع الغضب والحقد وبواعث السخط والتذمر والأحزان .

سمعت مارى تستيقظ قائلة :

ــ ايثان . انك تكلم نفسك . ولست أعرف مايدور فى رأسك ولكنه يكاد يسمع . كف عن التفكير يا ايثان .

هكذا نهضت وحلقت ونزلت للافطار .

وعندما ذهبت لفتح باب المحل الخلفى رأيت مظروف البنك

البني مدفوعا تحت الباب . وكان مغلقا. فاخرجت مطواتي وشققته نظرا لسمكه .
وجدت فيه ثلاث ورقات من كراسة مدرسية رخيصة مكتوبة بقلم رصاص . كانت وصية . « لما كنت بكامل قواى العقلية... » ـ « فانني أقرر ... » ـ « وانني اقبل أن اسدد الدين برهن »
وكانت الورقتان موقعتين بامضاء داني تيلور . أما الورقة الثالثة فقد تضمنت هذه الكلمات : « عزيزى ايثان ـ هذا هو ماتريده».
شعرت بتصلب في بشرة وجهي . ولم البث أن اغلقت باب المحل الخلفي ببطء كما يغلق الانسان باب مدفن تحت الأرض . ان الورقتين طويتهما بعناية ووضعتهما في محفظتي . أما الورقة الثالثة فقد فركتها والقيت بها في «التواليت» وجذبت سلسلة«السيفون» حتى غابت .
لم القَ هذا الصباح خطبتي المتادة للمعلبات . وانما أخرجت خرطوما وغسلت الرصيف تماما . وبعد هذا نظفت المحل كله ، حتى زواياه التي لم أمسها منذ مدة .
والفيتني اتغنى مرددا :

وبعد شتاء احزاننا الذى اكفهر واستطال
جاء الآن صيفنا المشرق بعراض الآمال

الفصل الحادي عشر

نامت بلدة « بايتساون » طويلا حتى تخلفت عن غيرها من البلدان والمواطن . لقد ازدهرت قديما بصيد الحيتان وتزويد « العالم الغربي » بزيت الحيتان للاضاءة . حتى معاهد اكسفورد وكمبريدج كانت تستمد ضوء مصابيحها من زيت هذه البلدة المتقدمة على الشاطىء الأمريكي . ولكن تفجر البترول في بنسلفانيا وغيرها من المناطق أدى الى الاستفاضة بالكيروسين عن زيت الحيتان ، وهكذا انكمش هذا المورد الذي قامت عليه حياة « بايتلون » حينا من الزمن ، وزحف العمران على المناطق الجديدة منبثقا من نيويورك الى ما بعدها ، وبقيت البلدة قابعة في أغلال التخلف والجمود .

حتى الرجال والقادة الذين تولوا مقاليد امورها سياسيا واقتصاديا وأدبيا ناموا على هذه الحقيقة واغمضوا عيونهم عن التغيير اطمئنانا الى توطد مراكزهم وكفالة شئونهم . ظنوا جميعا ـ العمدة ، والمجلس ، والقضاة ، والشرطة ـ انهم في مناصبهم مخلدون . كان العمدة يبيع للادارة حاجتها من ادوات الانشاء والتعمير ، والقضاة يتلاعبون في المخالفات تحيزا لبعض الناس وهم يظنون لطول مارسوا عملياتهم انها غير مجافية للقانون .

ثم جاء الصيف ليوقظ الجميع من سباتهم ويفتح عيونهم فجأة على التغييرات الجديدة التي توشك أن تقض المضاجع وتقوض القديم من اساسه .

وفي أصيل هذا اليوم من ايام شهر يونيو الحارة وقف ايثان في محل البقالة يمارس عمله المعتاد حينما دخل عليه جو مورفي صراف البنك وطلب زجاجة شراب مرطب كما هي عادته ، وأضاف قائلا :

ـ الواجب ان تضع في المحل جهاز تقديم المياه الغازية .

فرد ايثان قائلا :

ـ ويكون لي ذراعان اضافيان ، أو انقسم الى بائعين . هل

نسيت ياجارى العزيز اننى لا امتلك هذا المحل ؟ ..
ــ يجب أن يكون لك محل . فالناس هنا يعرفونك ، ويحبونك..
ــ ومع هذا فقد كان لى هذا ، ثم أفلست .
ــ كان ذلك لأسباب فنية . وقتها لم تتدرب على شراء سلع طبقا للأصــول التجارية .
ــ ربما كنت لم أزل كذلك .
ــ هل تعرف يا ايثــان عيبك ؟ انك مازلت فى حالة « افلاس عقلى » ... تخلص من هــذه الحالة يا ايثان . تخلص منهــا باسليل اسرة هاولى .
ــ اشكرك .
ــ أنت تعرف محبتى لك . متى سيذهب مارولو الى ايطاليا ؟
ــ لم يخبرنى . قل لى ياجو : الى اى درجــة يعتبر مارولو من الأغنياء ؟ لــكن لا . لا تقل . انا أعرف انه مفروض فيــك عدم افشاء أسرار العملاء ..
ــ بامكانى مخالفة بعض اللوائح من اجل صــديق يا ايثان . يمكننى أن اقول عموما انه يضع أصابعه فى أشياء كثيرة : عقــار وأرض فضــاء هناك ، واكشــاك مبنية على الشاطىء ، ورهون عقــارية مختلفة .
ــ وكيف عرفت هــذا ؟ ــ
ــ من خزانة الودائع . انه استأجر عندنا واحدة منها كبيرة . عنده مفتاح لها وعندى الثانى . ولابأس أن أقول اننى تحسست بين الحين والحين . ولــكنك تلاحظ اننى لم أذكر رصيده المالى.
ــ وانا لم اطلب منك هــذا .
ــ الحقيقة يا ايثان اننى فكرت كثيرا فى أمرك . ان ما ينقصك هو التصميم والجراة . ان الفشل هو حالة عقلية . ومتى صممت وقفزت من حفرة التردد واليأس ، فســوف تجد أن النجاح هو حالة عقلية أيضا .
ــ ليتنى أعرف ما الذى تريده منى أن احاول فعله .
ــ ليتنى أعرف مثلك ، اذن لفعلت هــذا لنفسى . ان صراف البنك لا يتطاول الى مركز رئيس بنك . اما من يمتلك حفنة من الســندات فهذا فى مقدوره . اظن اننى أحاول أن أقول لك : اخطف اى شيء يمر قربك . فقد لايمر بعد ذلك .
ــ انت فيلسوف ياجو . فيلسوف مالى !

ـ عيب الناس انهم يعيشون اغلب حياتهم بين الماضى والحاضر ولا يكرسون مثل ذلك للتفكير فى المستقبل . تحضرنى دائما عبارة قالها كاتبنا القديم ساتشل بيج : « لا تنظر الى الوراء . فربما كان هناك شىء يلاحقك حتى يسبقك » . لابد لى الآن من العودة الى البنك . ان مستر بيكر ينوى السفر الى نيويورك غدا لبضعة أيام . انه مشغول جدا هذه الأيام .

ـ باى شىء ؟

ـ وكيف عرف ؟ اننى اتلقى البريد الوارد واسلمه . انه تلقى فى الفترة الأخيرة مراسلات كثيرة من « البانى » .

ـ فى السياسة ؟ ..

ـ انا أوزع البريد الداخلى للبنك فقط ، ولا اقرأه . هل العمل عندك قليل هكذا دائما ؟

ـ حوالى الساعة الرابعة فقط . وسوف تشتد الحركة بعد ربع ساعة .

ـ سأراك فيما بعد . لا تنس نصائحى .

وعادت حركة الشراء والبيع الى نشاطها على الأثر . وبعد انتهاء فترة العمل المسائية جمع فى كيس كبير لوازم البيت ثم خلع مريلته ولبس سترته وقبعته ، وجلس برهة على المنصة وسرح بصره فى المعلبات المتراصة فوق الأرفف قائلا : لا خطب اليوم . سأتذكر فقط كلمات ساتشيل بيج . لابد ان اتعلم الآن الا انظر الىالوراء !

واخرج من محفظته الورقتين المطويتين وجعل لهما مظروفا صغيرا من الورق المشمع ، ثم دس المظروف فى ركن خلف محرك الثلاجة واغلق الباب المعدنى كما كان .

وبحث تحت مسجلة النقد حتى وجد دليل التليفونات تعلوه الأتربة فوق رف . فبحث فيه عن رقم ادارة الهجرة ، ولما وعاه فى ذاكرته قال مخاطبا المعلبات دون أن ينظر اليها : اذا كان كل شىء قانونيا ومستقيما ، فلن يضار أحد .

وخرج ايثان الى باب الحارة واغلقه . وحمل كيس اللوازم المنزلية وعبر الشارع الى مطعم فورماستر الذى كان مزدحما فىهذه الفترة بالشاربين ، ولكن كشك التليفون كان خاليا . فاغلق بابه الزجاجى ووضع الكيس على الأرض ونثر النقود الصغيرة على الرف ، ثم ادخل القطعة المطلوبة فى الفتحة وادار رقم صفر . وبعد ان رد عليه العامل قال له :

ــ اريد مكالمة الى نيويورك .
ــ حسنا . أدر الرقم من فضلك .
وهذا ما فعله ايثان .

***

عاد ايثـــان الى بيته حاملا كيس اللوازم المنزلية . واسترعى نظره وهو يجتاز الحديقة الصغيرة طول الحشائش ، فقال لمارى بعد أن قبلها :

ــ الحشائش طويلة ياحبيبتى . الا ترين انه يمكن أن يقوم آلان بتقليمها ؟

ــ نحن الآن فى فترة الامتحانات ، ومشغولية آخر السنة .

ــ ما هذه الأصوات المزعجة فى الغرفة الثانية ؟

ــ هو آلان يتمرن على الالقاء . انه سيشترك فى الحفل المدرسى لمناسبة آخر السنة .

ــ معنى هذا اننى ساضطر الى تقليم الحشائش بنفسى .

ــ انا آسفة ياعزيزى . لـكنك تعرف الظروف . يجب أن تكون لنا جزازة آلية للأعشاب . ان اسرة جونسون عندها آلة مثل هذه يمكن ركوبها .

ــ بل يجب أن يكون لنا بستانى وصبى بستانى . كان جـــدى عنده هذا . وبامكان آلان أن يركب الجزازة اذا أردت ياعزيزتى .

ــ لا تتحامل على الولد . انه لم يتجاوز الرابعـــة عشرة . هم جميعا كذلك ، فى هذه السن .

ــ ان الصـــوت النشاز الصادر من الغرفة يثير جنونى . أحب أن أعرف ماذا يفعل ؟ ..

ــ الظاهر انك متضايق يا ايثان . ترفق بابنك !

كان آلان يصيح بكلمات مبهمة من خلال قصبة رنانة وضعها على لسانه . فقال له ابوه :

ــ ماذا تفعل بالله ؟ ..

فلفظ آلان القصبة فى راحة يده واجاب قائلا :

ــ هى من علبة حبوب ميكى ماوس . هذه طريقة الـكلام البطنى. لابد لى أن أتدرب يا بابا .

فجلس ايثان قائلا :

ــ لحظة معى . ما هى خطتك فى الحياة ؟

ــ هيـــه ؟ ..

ـ يعنى المستقبل . الم يقولوا لك فى المدرسة ؟ ان المستقبل بين يديك .

وفى هذه اللحظة دلفت ايلين الى الغرفة وتكومت مثل قطـة فوق الأريكة وهى تضحك ضحكة لاذعة ، وقالت :

ـ انه يريد أن يظهر فى التليفزيون .

ـ هناك ولد سنه ١٣ سنة فقط كسب مائة وثلاثين الف دولار فى برنامج للفوازير .

فقالت ايلين : تبين ان العملية فيها تلاعب .

ـ على كل حال لايزال عنده ١٣٠ الف دولار .

فقال ايثان : الجوانب الأخلاقيـة لا تضايقك ؟

ـ مع ذلك فان المبلغ كبير .

ـ الا ترى ان هذا مخالف للأمانة ؟ ..

ـ كل واحد يفعل هذا .

ـ أرى ان اخلاقك تتفكك . اعتدل فى جلوسك . وهل نسيت كلمة « سيدى » من آداب المحادثة ؟ ..

بدا الانزعاج على الفتى ، ثم اعتـدل فى جلسته والاستياء باد عليه ، وأجاب :

ـ لا ياسـيدى .

ـ كيف حالك فى المدرسـة ؟ ..

ـ على ما يرام كما اظن .

ـ كنت تكتب موضـوعا عن كيف تحب امريكا . هل تصميمك على افسادها أوقف هـذا المشروع ؟ ..

ـ اننى أتممت الموضـوع .

ـ حسنا . اود أن أراه .

ـ اننى أرسـلته .

ـ لابد ان عندك نسخة منه .

ـ لا ياسـيدى .

ـ افرض انه ضـاع ؟ ..

ـ لم افكر فى هذا يا بابا. انني اتمنى ان اذهب الىالمعسكرات الصـيفية مثل كل الأولاد .

ـ ليس هذا فى طاقتنا . ليس كل الأولاد يذهبون ـ قليل منهم فقط .

ـ يا ليت كان عندنا بعض المـال .

فقال ايثان وهو يتفرس فى وجه ولده :
ـ سأجعل هـــــذا شيئا ممكنا .
ـ ماذا ياسيـــــدى ؟ ..
ـ بامكانى أن أدبر لك عملا فى المحل هـــــذا الصيف .
ـ ما هو هـــــذا العمل ؟ ..
ـ ســـوف تحمل وتنظف الرفوف وتكنس ، وربما اذا أفلحت يمكن أن تقدم الطلبات للزبائن .
ـ اريد أن اذهب الى المعسكرات الصـــــيفية .
ـ وتريد أيضا أن تكسب مائة ألف دولار .
ـ ربما أكسب موضوع المسابقة . على الأقل فيهـــا رحلة الى واشنطن . وهي نوع من الاجازة والراحة بعد الســـنة بطولها فى المدرســـــة .
ـ الان ! هناك قواعد ثابتـــة للأخلاق ، والأدب ، والأمانة ، والاستقامة ، وحتى النشاط . حان الوقت لــكى أعلمك اصولها. ســـــــوف تشتغل .
فتطلع اليه الفتى قائلا :
ـ لا يمكنك .
ـ عفـــــوا ؟ ..
ـ فهناك قوانين تشغيل الصغار . لايمكننى حتى الحصول على ترخيص عمل قبل سن السادسة عشرة . هل تريد منى انأخالف القـــــانون ؟ ...
فقال ايثان وقد تجلى غضــــــبه :
ـ وهل تظن ان جميــــع الأولاد والبنـــات الذين يســـاعدون والديهم نصفهم عبيد ونصفهم مجرمون ؟
لم يستطع آلان الا أن يدير نظره ، وقال :
ـ لم أقصد هذا ياسيدى .
ـ أنا عارف . ولا تكرر هذا . انك جرحت كرامة عشرين جيلا من سلائل أسرة هاولى . كانوا رجالا كراما شرفاء . وربما تكون جديرا بأن تــكون واحدا منهم فى يوم من الأيام .
ـ نعم ياسيدى . هل يمكن أن أذهب الى غرفتى ياسيدى ؟
ـ يمكن .
وراح آلان يصعد السلالم بخطا وانية .
وعندما اختفى اعتدلت ايلين فى جلستها فجاة وقالت وقد جذبت

« الجونلة » فوق ركبتيها مثل فتاة مكتملة :
ــ كنت اقرأ خطب هنرى كلاى . انه كاتب ممتاز .
ــ نعم . هو كذلك .
ــ هل تتذكر خطبه ؟
ــ ليس تماما . مضى وقت طويل منذ أن قرأتها .
ــ هو كاتب ممتاز .
ــ يبدو لى انها ليست موضوعا لقراءة مدرسية للبنات .
ــ هو كاتب ممتاز .
نهض ايثان من مكانه متثاقلا ، خصوصا بعد جهد النهارالطويل فى العمل . وفى المطبخ وجد مارى محمرة العينين غاضبة ، وقد قالت له :
ــ سمعتك . انني أستغرب مافعلت . هو صبى صغير فقط.
ــ هذا هو الوقت للبداية ياعزيزتى .
ــ لاتدللنى بالألفاظ انا لا أحتمل المستبد .
ــ مستبد ؟ يا الهى !
ــ انه ولد صغير . ولكنك سحقته كحشرة !
ــ لا ياعزيزتى . انني فتحت عينيه على نظرة سريعة للدنيا . انه كان يبنى دنيا زائفة .
ــ من أنت حتى تعرف ما هى الدنيا ؟
مر ايثان بجانبها واتجه الى البيت الخلفى . فقالت :
ــ الى أين تذهب ؟ ..
ــ لجز الحشائش .
ــ كنت اظن انك متعب .
ــ انا كذلك ــ أو كنت .
ثم تطلع اليها من فوق منكبه وقال وهو يخرج الى الحديقة :
ــ الانسان مسكين فى وحدته !
وسمعت مارى صليل شفرات الجزازة وهى تقلم الحشائش ثم جاءها صوت ايثان مناديا :
ــ مارى . مارى . أحبك يا مارى !
واستمرت عملية الجز بلا هوادة .

الفصل الثانى عشر

كانت مارجى « الصيادة الشابة » امرأة جذابة ، ذكية ، بل انها بلغت من الذكاء حدا تعرف معه متى وكيف تخفى ذكاءها .

لقد أخفقت فى زواجها الأول وطلقت ، وأخفقت فى زواجهـــا الثانى ومات زوجها .

وكانت تنفق أكثر دخلها الذى تناله من زوجها الأول نفقة تطوعية على زينتها وملابسها لاغراء من توقعهم فى حبائلها ، وان كانت فى علاقاتها بهم تلتزم التكتم والسرية . كان منهم دانى تيلور ، والفيو مارولو ، ورئيس نقطة البوليس ستونى سميث ـ ولـكن هـــذه العلاقات لم تدم طويلا .

وتحول هدفها الآن الى ايثان هاولى ، الذى بدأ اهتمامها به عرضيا ومن قبيل سد الفراغ ، ثم استحال الى رغبة فى اختبار قدرتها وسلطانها . لقد بدا لها من المناوشات الأولى مستعصما . فهو اذن رجل خارق الارادة ، واذا غلبتـــه لـكانت أقوى ارادة وأنفذ سلطانا .

ولعل مارجى كانت الوحيدة التى تفطنت الى تلك التغييرات العميقة التى بدأت تعترى ايثان ، وربما روعها ذلك اذ عـــدته من تأثيرها وصنعها ، بيد انها عقدت العزم على متابعة التجربة الى النهاية .

وهكذا نراها اليوم وقد تسلحت بأتم زينة وأبهى ملابس ، كما يتسلح القصاب بأحد مداه وأمضاها ، ثم قصدت من فورها الى محل البقالة لاتلوى على شىء فى طريقها الحافل بالمعجبين والمفتونين .

كان ايثان منهمكا فى الحديث مع رجل غريب فى منتصف العمر توحى هيأته بانه من الرجال الرسميين . فقالت مارجى :

ــ انت مشغول يا ايثان . سأعود فى وقت آخر .

وانتقلت من فورها الى البنك المجاور ، فتلقاها جو مورفى مرحبا ، ولبى رغبتها فى صرف شيك بعشرين دولارا وهو يجاذبها لفكه الحديث لما كان بينهما من علاقة ودية لم تتجاوز حد الدعوة الى الطعام بين وقت وآخر .

وفيما هي تتأهب للانصراف لمحت الرجل الذي كان يتكلم مع ايثان يمر عن كثب منها ويقدم بطاقته ، وبعد برهة ادخل الى مكتب مستر بيكر واغلق الباب عليهما . فقالت مارجي للصراف :

ـ من هـــــذا ؟ ..

ـ لم أره قبل الآن . يبدو انه من رجال التفتيش في البنوك . في هذه المناسبات أحمد الله على أمانتي وعلى قدرتي في الجمع والطرح.

وغادت مارجي على الأثر الى محل البقالة ، ولما حياها ايثان سألته :

ـ من كان هذا الغريب الأنيق ؟

ـ الا تحملين كرتك البلورية ؟ ..

ـ هل هو من رجال المخابرات ؟ ..

ـ أكثر . هل الناس كلهم يخافون من الشرطة يا مارجي ؟ انني اخاف منهم ، رغم انني لم افعل أي شيء ..

ـ هل كان ذلك الرجل الأنيق من رجال الشرطة ؟ ..

ـ ليس تماما . قال انه من رجال الحكومة الاتحادية .

ـ وما الذي كان يريده يا ايثان ؟ ..

ـ كل ما اعرفه هو ما ســـــألني عنه ، ولـكنني لا اعرف ما الذي يريده .

ـ وماذا قلت له ؟

ـ من اي وقت أعرف رئيسي . ومن يعرفه غيري ؟ ومتى جاء الى « نيو بايتاون » ؟ ..

ـ وماذا قلت له ؟

ـ قلت انني عندما ذهبت الى الخدمة لمحاربة العدو ، لم أعرفه. وعندما عدت كان المحل قد آل اليه ، وأعطاني عملا .

ـ وما الذي تظن انه يسعى اليه ؟

ـ الله يعلم . وان كنت أصارحك يا مارجي انني شـــعرت بالقلق . أنا محتاج الى هذا العمل ، واذا حدث أي شيء لمـــارولو فسوف اكون في الشارع .

ـ هل نسيت انك سوف تغتني ؟ ..

ـ من الصعب ان اتذكر هذا وأنا لست كذلك .

فقالت معابثة :

ـ تأكد ان الطالع الذي قرأته لك سوف يتحقق .

ـ اشعر بهذا .

ـ الا تظن انك مدين لي بشيء اذن ؟

ـ صحيح ؟ ..
ـ متى ستدفع الدين ؟
فتح ايثان الثلاجة واخرج زجاجتى كولا قدم اليها احـــداهما واخذ الثانية . وقال لها :
ـ ما الذى تريدينه منى ؟ ..
ـ لم ار فى حياتي رجـــلا مثلك . ربما كنت اريد ان اعرف كيف يكون الحب ، او الـكراهية ! ..
ـ أنت ساحرة . لمــاذا لا تثيرين عاصـــفة ؟ ..
ـ بامكاني أن اثير عاصفة صغيرة فى معظم الرجال بحاجبى فقط .
ـ أنت سيدة جميلة ولـكنك أيضا ذكية . ماذا تريدين منى ؟
ـ قرأت لك حظك وسوف يتحقق .
ـ وتريدين امتصاص نصيبك ؟ ..
ـ نعم .
فرفع عينيه وراح يقول :
ـ بامكاني الآن أن أصدقك . مارى ياحبيبة القلب :
نظرة منك الى زوجك ، وحبيبك ، وصديقك ! احميني من الشر فى داخلي ومن الاذى من خارجي ! استحلفك ياماري ان تساعديني ، لانني خلقت من ضعف ، وقد اضعف وانهار !
ـ انت مهرج يا ايثان .
ـ أعرف هـــذا .
ـ انني اصبحت اخافك الآن ، ولم اكن هكذا من قبل .
ـ لا أعرف لمــاذا .
وفجاة غيرت لهجتها قائلة :
ـ ماروللو .
ـ ماذا عنه ؟
ـ انا اســـألك .
ـ عن اذنك لحظة . عشر بيضات ، ومربع زبدة ؟ حاضر وبن ايضا ؟
ـ نعم .علبة . ومارايك فى «بولبيف هومدون» ؟
ـ لم أجربه ، لــكنهم قالوا انه لذيذ ... تحت أمرك يامستر بيكر . الم تأخذ مسز بيكر علبة من « بولبيف هومدون » اخيرا
فرد مستر بيكر الذى كان قد جاء فقطع عليهما الحديث
ـ لا أعرف يا ايثـــان . أنا آكل ما يقدم الى . مستر يونج

هانت ـ انت تريدين حلاوة كل يوم .
ـ هذا ظرف منك ياسيدى . مستر هاولى ، ضع مشترياتى فى كيس ، وساعود لاخذها وانى عائدة الى البيت .
ـ حاضر ياسيدتى .
وقال مستر بيكر بعد خروجها :
ـ هـذه شـابة مدهشة .
ـ انها منسجمة مع ملوى .
ـ قل لى يا ايثان : هل جاء ذلك الرجل الحكومى الى هنا .
ـ نعم .
ـ وماذا يريد ؟
ـ لا اعرف . انه سالنى اسئلة عن مستر مارويللو لم اعرف الرد عليها .
ـ ايثان : هل رايت دانى تيلور ؟
ـ لا . لم اره .
ـ هل تعرف اين هو ؟
ـ لا . لا اعرف .
ـ لابد ان اتصل به . الا تعرف اين يمكن ان يكون ؟ ..
ـ اننى لم اره منذ شهر مايو . وكان ينوى أن يحاول العلاج من جديد . وقد اقترض منى بعض المـال .
ـ ماذا ؟
ـ اننى أقرضته مبلغا صغيرا .
ـ كم ؟
ـ عفـــــــوا ؟
ـ انا آسف يا ايثان . اننا أصدقاء قدماء . آسف . هل كان يمتلك نقودا اخرى ؟
ـ اظن هذا .
ـ اذا عرفت مكانه فارجو أن تخبرنى . هل اخذت هذا المبلغ من مارى ؟
ـ نعم .
ـ وهل لم تمانع ؟
ـ انها لم تعرف ، ثقة منها بى .
ـ انت شخص حاذق .
ـ منك نتعلم ياسيدى .

ـ وهل ماري بخير ؟
ـ بكل خير . ليتني أستطيع أن أصحبها فى اجازة قصيرة .
ـ كل شيء سيأتي فى وقته يا ايثان . اظن انني سأذهب الى « ماين » فى عطلة عيد ٤ يوليو ، بعيدا عن الضوضاء التي لا احتملها .
ـ الم تكن فى رحلة الى « البانى » ياسيدى ؟
ـ من اوحى اليك بهذا ؟ ..
ـ لا أعرف . سمعت فى مكان ما . ربما كانت مسز بيكر قد اخبرت مارى .
ـ لايمكن . انها لم تعرف . حاول أن تتذكر أين سمعت هذا .
ـ لايمكنني ياسيدى . وماذا يهم اذا لم يكن الخبر صحيحا ؟
ـ سأخبرك بينى وبينك لماذا اقلقنى ذلك . السبب هو انه حقيقى . ان حاكم الولاية استدعانى . انها مسالة خطيرة . من اين تتسرب اخبار كهذه ياترى ؟ ومع ذلك سأخبرك بشيء ، واذا تسرب عرفت المصدر .
ـ اذن فلا اريد ان أسمع .
ـ لاخيار لك الآن بعد ان عرفت حكاية « البانى » . ان الولاية تجرى تحقيقات فى شئون المقاطعة والبلدة .
ـ لماذا ؟
ـ اظن لأن « الرائحة » فاحت حتى وصلت الى « البانى » .
ـ هل لها علاقة بالسياسة ؟ ..
ـ ان كل ما يباشره الحاكم يمكن اعتباره من السياسة .
ـ مستر بيكر . لماذا لا تجرى التحقيقات علنا ؟
ـ سأقول لك سببه . ان الأخبار تسربت من الولاية ، وعندما بدأ المحققون كانت معظم السجلات قد اختفت .
ـ ان الانتخابات ستجرى فى السابع من يوليو . هل ستذاع الحكاية قبل ذلك ؟ ..
ـ لا أعرف . هذا موكول الى الولاية .
ـ هل تظن ان مارولو له ضلع فى هذا ؟ اننى لا احتمل فقدان عملى .
ـ لا اظن . ان الموظف الحكومى كان من رجال الحكومة الاتحادية . وزارة العدل .
ـ لا اظن انه من المستصوب ان تسافر فى هذه الظروف .
ـ لايهم . لن يحدث شيء قبل عطلة عيد ٤ يوليو . اريد الآن

لتشحذ همتك وتبحث لي عن مكان داني تيلور .
ـ لماذا ؟ هل المسألة مهمة الى هذا الحد ؟
ـ نعم . ولايمكنني ان اذكر السبب فى الوقت الحالى . على كل حال لو امكنك العثور عليه لاستغنيت عن هذا العمل .
ـ اذا كان الامر كذلك فسوف ابذل غاية جهـدى ياسيدى .
ـ هذا عهدى بك يا ايثان . واذا وجدته فاتصل بى ، نهارا او ليلا .

الفصل الثالث عشر

أقرر هنا ، اراحة لضميرى ، ان ما فعلته وماخططت لفعله كان شيئا غريبا عنى ، ولكنه كان ضرورة لابد منها . والواقع انه لم يكن لى أى ضلع فى المأساة الوشيكة التى ستقع فى السابع من يوليو . انها لم تكن من عملى أو تدبيرى ، لكن كان فى طاقتى أن استبقها وافيد منها .

ومن الناس من أوتى القدرة على استشفاف التغييرات الحادثة وتلقى اشاراتها الخفية . واظن ان مارى شعرت بأن هناك تغييرا قادما ، ولكنها أساءت تأويله . واظن ان مارجي « الصيادة الشابة » عرفت أيضا ، فهى ذكية كما هى ساحرة ، ولكن هذا أدعى الى القلق .

وكنت واثقا ان مستر بيكر سوف يذهب فى الاجازة بعد ظهر يوم الجمعة فى عطلة عيد ٤ يوليو أو يوم السبت لكى يتسع الوقت لوقوع ما سوف يقع وليكون بعيدا عند حدوث الصدمة . وطبعا لم يكن هذا ليهمنى كثيرا ، ولكنه أوجب على ان أقوم بعدة تحركات ضرورية يوم الخميس ، احتمالا لسفره فى تلك الليلة . ان عملية يوم السبت التى سأقوم بها كانت مرسومة بكل دقة وباسلوب عملى تماما الى حد انه كان بوسعى أن أمضى فى تنفيذها وانا نائم . ولو كان عندى اى خوف منها فلم يكن بأكثر مما يعرض للممثل وهو يوشك أن يخرج الى خشبة المسرح .

وفى يوم الاثنين ، ٢٧ يونيو ، جاء مارولو الى المحل بعد أن فتحت مباشرة . وقد راح يطوف بارجاء المحل ويتفقد الارفف والمنصة مسجلة النقد والثلاجة والمخزن بصورة غير معهودة كما لو كان يراها لأول مرة . ولما سألته ان كان سيقوم برحلة فى عطلة ٤ يوليو مثل غيره قال لى :

ــ ولماذا تسألنى هذا ؟

ــ لأنها رحلة يقوم بها كل قادر .

ــ والى اين يمكن أن اذهب ؟ ..

ـ الى كاتسكيلر مثلا ، أو الى مونتاوك ، حيث يمكنك صيد الأسماك .

وكانت هذه الفكرة كافية لكي يثني ذراعيه متألما . فاقتربت منه ووضعت يدي على ذراعه برفق وقلت له :

ـ اسمع يا الفيو . لماذا لا تذهب الى نيويورك لاستشارة كبار الأطباء الاخصائيين فى الروماتزم . لابد من وجود دواء يوقف هذه الالام .

ـ لا أعتقد فى هذا .

ـ عليك أن تجرب . لن تخسر شيئا . انني مشفق عليك .

فنظر الى طويلا وهم أن يقول شيئا ، لكنه غير رأيه وقال :

ـ انت ولد طيب .

وهم أن يخرج ، ولكنه توقف فى المدخل وصاح قائلا :

ـ خذ سيارتي « البونتياك » .

ـ ماذا ؟

ـ اذهب بها فى رحلة يومى الأحد والاثنين .

ـ هذا شيء لا طاقة لى به .

ـ خذ أسرتك . انني قلت للجراج أن يعطوك السيارة . والخزان مملوء بالبنزين .

ـ انتظر لحظة !

ـ اذهب الى جهنم . خذ أسرتك فى اجازة .

وطوح الى بلفافة كانت تحتوى على ثلاث ورقات من فئة عشرين دولارا .

ولم يظهر ماروللو بقية الأسبوع .

والحق انني لم أكن أتوقع حكاية السيارة « البونتياك » . ولم يسبق له أن أعار سيارته لأى انسان . فكانت هذه هى احدى الغرائب التى بدأت تحفل بها أيامى فى العهد الأخير .

وفى يوم الخميس ٣٠ يونيو استيقظت كعادتى عند بزوغ الفجر ، فكان أول ما فكرت فيه أن أتفرغ لأسرتى حتى لا يشغلنى أى طارىء عما سأكرس له نشاطى هذا اليوم . وهكذا بدأت بمارى وقلت لها :

ـ هل استيقظت بدرجة تكفى لكى تسمعى أخبارا عظيمة مبهجة ؟

ـ عرفتك تهزل دائما . ان كانت أخبارك من نوع « تبليغ » الحديقة فان ...

ـ دعى عنك هذا الكلام الفارغ . ان مارولو أصدر الأوامر

بان ناخذ سيارته ونقوم برحلة سعيدة فى اجازة العيد .
ــ انك تمزح كعادتك .
ــ وهل يجوز أن أقول كذبة تحزنك ؟ ..
ــ لـكن لمـــاذا ؟ ..
ــ لا أعرف . ولـكننى اقسم لك بكل يمين مقدسـة ان «البونتياك» الفاخرة وملء خزانها بنزين نقى سـوف تكون رهن اشارة سموك !
ــ لـكن الى اين نذهب ؟ ..
ــ هذا يازوجتى النحلة الشغالة هـو ما سوف تقررينه اليوم وغدا ويوم السبت .
ــ لـكن هل هذا فى طاقتنا . معناه أن ننزل فى فندق اوماشابه.
ــ عندى تمويل سرى لن أكشف عنه الا فى الوقت المناسب .
ــ ترى ما الذى يريده من هذا ! ...
ــ لا يصح أن يصدر كلام كهذا من زوجتى . ربما كان يريد منا ان نحبه .
ــ لـكن لابد أن أجهز اشياء كثيرة للرحلة .
ــ انه ليس بالـكثير على همتك .

وأثناء شربى لفنجان القهوة الثانى عند الافطار كانت مارى قد استعرضت واستبعدت نصف المناطق الترفيهية على امتداد الشاطىء الأمريكى الشرقى كله . مسكينة يا مارى حبيبتى انها فقدت طعم المرح والبهجة هذه الأعوام الأخيرة ! ..
قلت لها :
ــ ارجو أن تمنحينى جانبـا من تفكيرك يانور عينى . هنـاك فرصة لاستثمار هام قريب . اريد مبلغا آخر من نقودك . ان المبلغ الأول اثمر جيدا .
ــ هل يعرف عنه مستر بيكر ؟..
ــ انها فـكرته .
ــ اذن خذ المبلغ . اكتب شيكا به .
ــ الا تحبين ان تعرفى التفاصيل ؟ نوع الاستثمار ، وعائده ، والضرائب الواجبة عنه ، الخ ؟..
ــ لن أفهم شيئا من هذا . ولو فهمت ، فلا أريد أن اعرف . كل مايهمنى الآن هو اننا سنقوم برحلة . رحلة لمدة يومين كاملين.

بعد هذا كيف لا أهيم بحب ماري ، بل كيف لا أعبـــدها .
واسرعت اجمع زجاجات اللبن الفارغة وقصدت من فوري الى عملي .
قابلت جو مورفي في الطريق ، ودخلنا الحارة معا ، ولما رايته متضايقا سألت عن السبب ، فقال :
ـ انني تعبت من تداول أموال الغير . عندي موعد لعطلة نهاية الأسبوع واخشي أن تعطلني زحمة العمل .
وحشر ورقة في قفل الباب ودخل قائلا :
ـ أراك فيما بعد .
واغلق باب البنك . ففتحت باب المحل الخلفي وقلت خلفه :
ـ ياجو . هل تريد شطائر اليوم ؟ ..
فرد من الداخل قائلا :
ـ لا . اشكرك . ربما يوم الجمعة . والسبت مؤكد .
ـ الا تغلق في فترة الظهر ؟
ـ سبق ان قلت لك . البنك يقفل ، ومورفي يواصل العمل .
ـ اطلبني اذا اردت .
ـ شكرا . شكرا يامستر هاولي .
ولم يكن عندي ما اقوله اليوم لأصدقائي فوق الأرفف ، واكتفيت بأن اقول : صباح الخير يا ســادة . استريحوا .
وقبـــل التاسعة بلحظات كنت اكنس الرصيف الأمامي بعد ان لبست « المريلة » .
وكان مستر بيكر دقيقا في مواعيده . في تمام الثامنة و ٥٩ دقيقة كان واقفا لدى باب البنـــك الزجاجي ، حيث وقفت ممســـكا بالمكنسة ، وقد اعترضت طريقه قائلا :
ـ مستر بيكر . أريد كلمة معك .
ـ صبـــاح الخير يا ايثان . هل يمكنك الانتظار دقيقة ؟ تعال ادخل . تبعته الي الداخل . كانت الصورة كما وصفها جو ، مثل طقس ديني . فقد وقفا وقفة انتباه تام حتي اجتاز عقرب الساعة تمام التاسعة . وتلا ذلك على الأثر « تكتكة » وطنـــين من باب الخزانة الفولاذي الـكبير . وعندئذ أدار جو الأرقام السرية للقفل ثم أدار العجلة التي جذبت الرتاج . فانفتح الهيكل المقدس بجلال وأدى مستر بيكر التحية للأموال المتراكمة . ووقفت خارج الحاجز الحديدي الظر بخشوع متعبد ينتظر التجلي والبركة !

ثم التفت الى مستر بيكر قائلا :
ـ والآن يا ايثان : ماذا يمكن أن أؤديه لك ؟
فقلت برقة . اريد أن اكلمك على انفراد ، ولا يمكننى ان اترك المحل . سأنتهز اول فرصة وامر بك .
وجاء حقا ، فى أقل من ساعة ، ووقف ينتظر الى ان خرج آخر « الزبائن » . فقلت له بلا مقدمات :
ـ مستر بيكر . ان مستر ماروللو واقع فى ورطة .
فاقترب منى قائلا :
ـ من أى نوع ؟
ـ لا أعرف بالضبط ياسيدى . اظن انها خاصة بدخوله الى البلاد بطريق غير شرعى .
ـ وكيف عرفت ؟ ..
ـ انه أخبرنى بهذا ، وان قالها بشكل غير مباشر .
بدا لى ان عقله اخذ يعمل بسرعة لالتقاط اجزاء الصورة وتركيبها معا ، وقال :
ـ استمر . النتيجة ترحيل الأجانب غير المرغوب فيهم .
ـ هو هذا كما أظن . انه كان طيبا معى . ولايمكن أن افعل شيئا يضره .
ـ عليك نفسك قبل كل شيء يا ايثان . ماذا كان اقتراحه ؟..
ـ لم يقدم اقتراحا ، ولكننى استخلصت فكرة معناها اننى اذا تمكنت من تدبير خمسة آلاف دولار نقدا بسرعة ، فيمكن أن اتملك المحل .
ـ هل تريد ان اكلمه ؟
ـ انه خارج البلدة .
ـ ومتى يعود ؟ ..
ـ لا اعرف ياسيدى . تذكر ياسيدى ان هذه الفكرة هى مجرد انطباع شخصى ، ولو امكن تدبير المبلغ فقد يوافق . انه يميل الى كما تعرف .
ـ اعرف هذا فعلا .
ـ لاباس . لقد خطر لى انه قد يكون بامكانك ان تجهز أوراق « المبايعة » وتترك التاريخ والمبلغ على بياض . ثم أقوم بسحب المبلغ من حساب مارى يوم الجمعة .
ـ ولماذا الجمعة ؟ ..

ــ سمعته يقول ان الجميع سوف يغادرون البلدة فى عطلة العيد، وفهمت انه قد يعود فى هذه الفترة . أليس عندك حساب فى البنك؟
ــ يا الهى ! انه سحبه باكمله منذ فترة قصيرة . قال انه ينوى شراء أسهم وسندات . ولم افكر فى هذا وقتها لانه اعتاد السحب وكان يعيد المبالغ باكثر منها . هل تعرف انك قد تتعرض بهذه العملية الى ضربة شديدة !
ــ ماذا تعنى ؟ ..
ــ أولا يمكنه ان يبيع المحل لأشخاص متعددين فى وقت واحد، وثانيا ان المحل قد يكون غارقا فى الرهون .
ــ بامكاني بحث هذه المسالة فى مكتب البلدة العقاري . انا اعرف مشغوليتك ياسيدى . واننى أستغل صداقتك لأسرتى . وفضلا عن هذا فانك الصديق الوحيد الذى له خبرة بهذه الامور.
ــ سوف اتصل بتوم واطسون عن الرهون . يالها من ظروف صعبة يا ايثان . اننى اريد ان اقوم برحلة صغيرة مساء غد . واذا تبين ان صاحبنا منحرف فقد يؤدى الأمر الى تجريدك من كل شيء.
ــ اذن فربما كان الأفضل ان أنفض يدى من هذه المسألة. لكن يا الهى ! اننى تعبت يامستر بيكر من عملى كبائع فى محل بقالة ! ان مارى ستكون سعيدة اذا تملكت المحل . لكن لعلك على حق. لا يجب أن اغامر بمالها .
ــ الحقيقة ان كل ما قلته لى عن صاحبتك لايزيد عن كونه تخمينات وانطباعات . والأفضل الا تتورط .
ــ عندى فكرة . الا يمكن أن ادفع له نقدا ، دون سجلات مكتوبة ؟ ..
ــ يمكنك أن تكتب على الشيك شيئا مثل : « من اجل استثمار فى عمليات بقالة مع ا . ماروللو » . يمكن أن يكون هذا تأكيدا لنيتك فقط ، دون أن تتورط فى شيء اذا وقع تحت طائلة القانون.
ــ واذا لم يفلح شيء من هذا ؟ ..
ــ اذن يمكنك اعادة المبلغ الى البنك .
ــ هل تظن ان العملية تستأهل المجازفة ؟ ..
ــ حسنا . كل شيء فيه مجازفة . ليتنى لم اكن مضطرا لمغادرة البلدة .
وعندما حضر بعض الزبائن فى هذه اللحظة اقترب منى مستر

بيكر وقال بصوت خافت :
ـ سأصرف لك المبلغ أوراق بنكنوت فئة مائة دولار واسـجل الارقام . وبهذا يمكنك استرداد المبلغ اذا قبضوا عليه .
وانصرف على الاثر وهو يومىء برأسه تحية لمعارفه من الزبائن القادمين .

الفصل الرابع عشر

اول يوليو . انه يوم يفرق السنة كفارق الشعر فى الراس . انني عددته كحد فاصل فى حياتي . امس كنت شيئا معينا ، وغدا شيء آخر مختلف . لقد اتممت استعدادي وهو شيء لا رجعة فيه . ولم يكن فى حسابي ان اخفي عن نفسي ما انا فاعله . فلم يحملني أحد على سلوك هذا الطريق الذى اخترته . وما كان أيسر أن أقول انني فعلت ذلك من اجل اسرتي ، لانني اعرف انني واجد فى توفير اسباب راحتهم وأمنهم ما ابتغى من عزة . ولكن هدفى كان محدودا ، وما ان اتمه حتى يسوغ لى ان اعود الى سابق طبعي وسالف شاني . ان الحرب لم تجعل مني قاتلا ، على الرغم من انني قتلت حينا من الزمن اناسا من البشر .

ومع ذلك فان الأوراق التى سطرها داني تيلور على عجل كانت بمثابة جرح فى نفسى يورث الحزن والأسى ، ومثل ذلك كان صنيع ماروللو معي .

انني لم أمض ليلتي ساهرا مسهدا كما يقال ان الناس يفعلون عشية المعركة . فقد ألم بي النوم مسرعا وعميقا وشاملا ، وتخلى عني فى بكرة الفجر مجدد القوى منتعشا . ثم تسللت بهدوء من الفراش وارتديت ملابسى فى الحمام وهبطت السلالم ملتزما جانب الحائط . ولم ادهش عندما ساقتني قدماى الى دولاب مخلفات الأسرة ، حيث فتحته واخرجت « تعويذة الحظ » فوضعتها فى جيبي واغلقت الدولاب كما كان ، ثم خرجت من البيت عن طريق الباب الخلفي . ولم اتمالك وانا اسير فى الطريق المظلم الذى حفت به اشجار الدردار على الجانبين ان ساءلت نفسي : ترى لماذا حملت معى « الحجر السحرى » لأول مرة ؟ لدفع شر ؟ لجلب الحظ ؟ انني لا اومن بقراءة الطالع ، وما كان التعلق بالأماني فى نظرى الا بضاعة الخائبين .

كانت وجهتى هى المختلى الخاص بى فى الميناء القديم . ولكنني

وجدت بعد طول الرحلة ان كهفى قد امتلأ بأمواج المد واكتنفته الظلمات .

ولما عرجت على كوخ دانى تيلور رأيت فى الضـوء المنتشر الآن الحشائش من حوله قائمة منتصبة ، فدلنى هذا على ان قدميه لم تطأ الحشائش وان الكوخ خلو من صاحبه .

هكذا عدت ادراجى وفتحت محل البقالة . وفيما كنت اكنس الرصيف اذ أقبل مستر بيكر فى موعده المحدد وباشر على الفور عمليته المقدسة ، وجاءت على الأثر سـيارة مصفحة هبط منها حارسان مسلحان وحملا أكياسا رمادية هى أكياس النقود الى داخل البنك . وبعد عشر دقائق عادا الى القلعة الحصينة التى ابتعدت بهما الى وجهة أخرى ، واظن انهما بقيا ، حتى أحصى جو مورفى النقود وراجعها مستر بيكر وقدم عنها الايصال اللازم . ولم أشك بالنظر الى حجم وثقل الاكياس ان البنك قد وضـع فى حسبانه عطلة عيد ٤ يوليو وما يقترن بها من كثرة سحب الأموال فاعد للأمر عدته . ولو اننى كنت لصا عاديا من لصوص البنوك لكانت هذه هى الفرصة المتاحة للسطو . لكننى لم اكن هذا اللص العادى . ان الفضل فى كل ماعرفته يرجع الى جو مورفى . وكان بوسعه ان يكون من كبار لصوص البنوك لو انه رغب فى ذلك . ترى لمـاذا لم تكن عنده هذه الرغبة ، حتى لمجرد ان يجرب نظرياته ؟

كان العمل متواصلا هذا اليوم . وعندما جاء مستر بيكر حوالى الساعة الحادية عشرة كان فى عجلة ظاهرة حتى اضطررت الى تأجيل طلبات بعض « الزبائن » ودخلت معه الى المخزن .

وضع مظروفا كبيرا وآخر صغيرا فى يدى . وبلغ من تعجله انه كلمنى بايجاز شـــديد قائلا :

ــ قال توم واطسون ان المحل بلا رهون . اليك أوراق نقـل الملكية . ضع الامضاءات تحت العلامات . اننى وضعت علامات على المبلغ واخذت الأرقام . واليك الشيك لكى توقع عليه . آسف لاستعجالى يا ايثان .

ولما وقعت على الشيك فحصه جيدا رغم استعجاله وقال لى :

ــ اعرض عليه الفين اولا . ثم زد العرض مائتى دولار كل مرة . لا تنس أن رصيدكم فى البنك لايزيد الآن عن خمسمائة دولار . كان الله فى عونك اذا احتجت الى نقود . والآن لابد لى من الذهاب . اريد أن أسرع قبل زحمة المرور وقت الظهر .

ومرهذا اليوم بطيئا ثقيلا . وحوالى الساعة الخامسة جاء ستون سميث رئيس النقطـة لشراء بعض المأكولات المجهزة وكان بادى الارهاق ، ولما سألته عما به تملص من الاجابة الصريحة ، وسألنى فجاة :
ـ قل لى يا ايثان : انت صديق لمستر بيكر . هل تعرف ان له معاملات سرية غير مشروعة ؟ ..
ـ وكيف أعرف ؟ .. لست صديقه الى هذه الدرجة .
ـ وما رأيك فى ماروللو ؟ .. اين ماروللو الآن ؟ ..
ـ ذهب الى نيويورك لعرض نفسه على أخصائى فى الروماتزم.
ـ يا الهى ! اننى لا اعرف شيئا . لو عرفت ولو شيئا قليلا ، لخطوت على نور .
ـ ما هـذا الـكلام ياستونى ؟ .. كلامك مبهم .
ـ ابدا . اننى تكلمت بما فيه الـكفاية . لـكن لن يكون بوسع احد أن ينسب الى شيئا .
وفجأة امسك بذراعى قائلا :
ـ ايثان . هل تظن اننى شرطي صالح ؟ هل تظن ان من الصواب ان يضطروا انسانا الى الوشاية بأصدقائه لـكى ينقذ نفسه ؟ ..
ـ لا . لا اظن .
ـ ولا أنا . لايمكنني احترام رؤساء هـذا أسلوبهم . ان ما يحزننى هو اننى لن اكون شرطيا صالحا بعد الآن لأننى لا انظر بالتقدير والرضاء الى ما افعله . ان المساكين كانوا اصدقائى ..
رحت أهون عليه . وقبل ان يحمل ماكولاته قلت له :
ـ كنت أريد الاستفهام منك عن شيء . لقد عثرت وانا انظف المحل على مسدس قديم ، كله صـدأ وشحم يابس . وقد قال ماروللو انه لا يخصه . وهو لا يخصنى بالتاكيد . فماذا يمكن أن افعل به ؟ ..
ـ حوله الى اذا كنت لا تريد الحصول على ترخيص عنه .
ـ سأحضره من المنزل غدا . فاننى وضعته فى علبة بها بترول . ماذا تفعل بشيء كهذا ياستونى ؟ ..
ـ انتظر لأرى ان كان هناك تحقيق بخصوصه ، وبعـد ذلك القيه فى البحر .
فقلت لـكى أسرى عنه :
ـ هل تتذكر منذ سنوات قريبة فى بعض جهات الولاية ؟ انهم

ضبطوا البوليس يبيع اسلحة مصادرة ! ..

والواقع ان هذا أضحكه ، حتى حمل لفافته وانصرف احسن حالا مما جاء .

ولما عدت الى البيت آخر النهار وجدت مشكلة فى انتظارى . فان مارى قد اختارت لرحلتنا الوشيكة منطقة خلوية قرب مونتوك كانت أصلا مزرعة لتربية الأبقار ثم تحولت اخيرا الى ساحة لقضاء العطلات حيث ينزل القادمون فى بيوت للضيافة .

ولكن ايلين كانت تريد أن تذهب الى نيويورك لكى تنزل فى أحد الفنادق وتمضى يومين فى منطقة « تيمزسكوير » . اما آلان فلم يكن يريد أن يذهب الى أى مكان ، وربما كانت هذه هى طريقته فى لفت الأنظار اليه واثبات وجوده .

هكذا وجدت البيت يغلى بأسباب الانفعال : ايلين تبكى بدموع بطيئة جارية على خديها . ومارى متعبة ومتوردة من تأثيرالاحباط . وآلان منزو فى غرفة الجلوس متبرما يستمع الى « الترانزستور » الصغير الخاص به والذى كان يولول بأغنية عن الحب والضياع بصوت أقرب الى الهستيريا تقول : « وعدت أن تكون مخلصا ، ولكنك أخذت قلبى المحب المهجور ورميته على الأرض » .

قالت مارى انها يئست وتكاد تنفض يديها من الرحلة. فقلت لها :

ــ الا يمكن أن نحبسهم فى « البدروم » ونذهب وحدنا ! ..

فقالت وقد اضطرت الى رفع صوتها لكى يكون مسموعا فوق صخب أغنية « القلب المحب المهجور » :

ــ الحقيقة اننى أتمنى الآن ان نفعل هذا .

وفجاة تملكنى الغضب . فاستدرت متجها الى غرفة الجلوس. لكى أمزق ابنى اربا وأرمى « قلبه المحب المهجور » على الأرض وادوسه. ولكن الموسيقى توقفت فجأة ، وانبعث صوت المذيع قائلا :

« نقطع هذا البرنامج لكى نقدم لكم نشرة أخبار خاصة . صدر أمر قضائى بعد ظهراليوم بتقديم كبار الموظفين فى «نيوبايتون» ومقاطعة ويسكس الى هيئة المحلفين الكبرى للتحقيق معهم فى الاتهامات الموجهة اليهم والتى تتراوح بين الحصول على الرشاوى عن العقود والمناقصات المتعلقة بالمشروعات العامة وفرض الاتاوات على القائمين بها والتلاعب فى القضايا ... »

هكذا وقعت الواقعة . نزلت الضربة على العمدة ، والمجلس ، والقضاة وغيرهم .

استمعت الى النشرة الاخبارية محزونا مكتئبا . كانوا غارقين فى هـذه الأفعال المنافية للقانون . وحتى لو كانوا ابرياء ، فلن يخلى سبيلهم قبل الانتخابات المحلية . وحتى الذين تثبت براءتهم فالاتهام سوف يظل ماثلا فى الأذهان . هكذا أحيـط بهم . وقد أصغيت لسماع اسم ستونى سميث رئيس النقطة بين أسماء المتهمين ، لكن اسمه لم يرد ، وهكذا استخلصت انه أوقع بهم للنجاة بجلده . وكان فى هذا تفسير ما رايت اليوم من ضيقة وغمة .

قالت مارى وكانت تنصت لدى الباب :

ـ حسنا . لم تحدث عندنا أشياء مثيرة منذ مدة . هل تظن يا ايثان ان هذا صحيح ؟ ..

ـ هذا لايهم . ان المقصود أشياء أبعد من ذلك .

ـ ترى ما هو رأى مستر بيكر ؟

ـ انه سافر فى اجازة . واننى أتساءل مثلك ، ما هو شعوره يا ترى ؟ ..

ان الأخبـار ، والعشاء ، والأطباق ، شغلتنا كلها عن مشاكل الرحلة حتى فات الوقت أو كاد لاتخاذ قرار نهائى ، أو لمزيد من الدموع والخصام .

ولما أويت الى فراشى لم استطع ان اغالب تلك الرعشـة التى انتابتنى من قمة رأسى الى اخمص قدمى . وقالت لى مارى :

ـ أراك فى حالة سيئة ياعزيزى . هل تشعر بمرض ؟ ..

ـ لاياحبيبتى . اننى أكاد أشعر بما يشعر به هؤلاء النـاس . لابد انهم فى أسوأ حال .

ـ كفى يا ايثان . لايمكن أن تحمل على كتفيك متاعب الآخرين .

ـ بل هذا هو الواقع .

ـ ترى هل يمكن أن تصبح من رجال الأعمال يوما ما ؟.. انت كثير الحساسية يا ايثان . ليست هذه جريمتك .

ـ بل ربما كانت جريمتى ... وجريمة كل انسان .

ـ لست افهم .

ـ ولا انا ياحبيبتى .

ـ لو كان عندنا فقط من يمكن أن يبقى مع الأولاد ! ..

ـ كررى هذا الكلام ياحبيبتى . كرريه .

ـ ليتنى كنت أستطيع أن أقضى اجازة معك وحدك .

ـ ان أقاربنا معدودون . فكرى معى ياحبيبتى . لو أمكن أن

« تعلب » الأولاد أو « تخللهم » لمدة قصـــيرة ! .. فكرى معى واقدحى زناد فكرك يانور عينى . أنا مشتاق لكى نكون وحدنا نحن الاثنين فى مكان غريب بعيد ... بعيد . ضمينى الى صدرك ... لنفكر فى طريقة .

ـ أراك مازلت ترتعش !.. هل تشعر ببرد ؟..

ـ برد وحر . امتلاء وخواء . أنا متعب .

ـ سأحاول التفكير فى طريقة تخلصنا منهما . نعم اننى احبهما ، لـكن ...

ـ أنا اعرف .

ـ هل سيوضعون فى السجن ؟ ..

ـ ياليت ...

ـ أقصد اولئك الموظفين ...

ـ لا . لن يكون هذا ضروريا . بل انهم لن يمثلوا أمام المحلفين قبل يوم الثلاثاء القادم ، والخميس هو موعد الانتخابات . هـــذه هى الحكاية المرسومة .

ـ ايثان ! انت متشكك فى كل الناس ... ومتشائم .

فجأة شعرت بالخوف . خشيت ان يكون تأثرى بالأحداث الجارية سبيلا لاظهار ما أضمره فى نفسى . ان مارى رغم أنها تعيش فى دنيا كلها ورود واحلام قد تأنس فى مسلـكى أو انفعالاتى بادرة تكشف المستور من خطتى . وفى هذا خطر كل الخطر ، الى ان يمر الغد بسلام .

لو أن هـــذه الخطة نبتت امامى كاملة لرفضتها كمحل ظـــاهر الاستحالة . ولـكنها بدأت لعبـــة . بدأت بالقواعد التى شرحها جو مورفى لسرقة أى بنك . وبسبب ما كنت أعانيه من ضـــيق وضجر فى عملى التافه تعلقت بهذه اللعبة واخذت اربط بينها وبين كثير من الأشياء الصغيرة التى كانت تقع فى طريقى : ابنى الآن وقناع الفار ميكى ماوس ، « التواليت» الذى يتسرب منه الماء ، المسدس الصدىء ، اقتراب عطلة العيد ، معلومة جو مورفى على حشر ورق فى قفل باب البنك الخلفى المطل على الحارة المشتركة بيننا . وقـــد رحت اكمل اللعبة برسم توقيت للعمليـــة ذاتها ، واجراء تجارب نظرية وفعلية .

ولست أدرى متى اصبحت اللعبة غير معدودة لعبـــة فقط . ربما كان ذلك عندما عرفت اننى قد اشترى المحل وقد احتـــاج

الى مال لادارة العمل فيه . ثم انه من الصعب نبذ عملية ناضجة دون اختبارها عمليا . اما عن الجريمة ، والخروج عن نطاق الشرف والأمانة ـ فانها ليست بجريمة ضد الناس ، بل ضد المال فقط . لن يضار احد بهذه الفعلة . فالمال مؤمن عليه . أما الجريمة الحقيقية فهي ضد الناس ، ضد داني تيلور ، وضد الفيو ماروللو . ولو تهيأ لي ان اقوم بالعملية ، فان السرقة لن تكون شيئا مذكورا . وسوف تكون عملية موقوتة عارضة . ولن يتكرر مثلها بحال . وصفوة القول قد وجدت قبل ان ادرك انها لم تعد لعبة ، ان خطتي أصبحت تامة : عدة وتوقيتا .

صحيح ان طروء حادث عرضي كان محتملا . لكن هذا محتمل ايضا اثناء عبور شارع أو سير تحت شجرة . وهكذا لم يبق عندي خوف ، وكل ما كان يلابسنى هو ذلك الاشفاق الذى يعرض للممثل وهو واقف بين الكواليس فى الليلة الافتتاحية ، على وشك الانتقال الى خشبة المسرح .

وفى خشيتي من عدم النوم نمت نوما عميقا ، بلا أحلام ، واستيقظت متأخرا حتى نهضت من الفراش منتفضا مما أيقظ مارى التى قالت :

ـ ماذا جرى ؟ ..

ـ تأخرت فى النوم .

ـ كلام فارغ . لايزال الوقت مبكرا .

ـ أبدا ياملاكي.هذا يوم سوف يشترى فيه الناس كل بقالة الدنيا.

ـ ستحتاج الى افطار مشبع .

ـ هل تعرفين ما سأفعل ؟ سآخذ قهوة مضاعفة من عند فورماستر ، وانقض على معلبات ماروللو مثل ذئب . فكري انت فى طريقة لهروبنا من اولادنا الاعزاء . اننا بحاجة الى هذا . وانا أعني ما أقول .

وارتديت ملابسى وخرجت قبل محاولة جديدة من جانبها لتوفير راحتي وهنائى .

قابلت جو مورفى فى الحارة الفاصلة بين البنك والمحل كالمعتاد ، فبادرنى على الفور قائلا :

ـ ما رأيك فى الاخبار التى اذيعت ؟

ـ مثيرة بلا حدود .

ـ بامكان بيكر أن يعود الآن . ترى هل يفعل ؟ ..

ــ يعود ؟ ..
ــ الا تشم شيئا ؟ ..
نظرت اليه متحيرا وقلت :
ــ هنا لى اشياء لا تزال غائبة عنى .
فقال بلهجة غامضة :
ــ انتظر ، وسوف ترى العجب العجاب .
قال جو مورفى هذا وهو يدس قطعة ورق فى فتحة القفل كعادته ثم استأذن ودخل دون تعقيب آخر . دخل بابه ولم أسمع صوت زنبرك القفل « يتك » ! .. وارجو الا يعرف جو مورفى فى يوم من الأيام انه كان الفضـــل معلم لى . فانه لم يعلمنى فقط ، بل انه مثل الواقع عمليا ؟ دون وعى منه ، وبذلك مهد الطريق أمامى.
لـكن هناك سؤال منطقى قد يوجه الى : اذا كان قد أصبح من المحقق اننى انال المحل لنفسى ، فما حاجتى الى المـــال اذن ؟ لاشك ان اناسا مثل مستر بيكر وجو مورفى يعرفون الرد ، وكذلك مارولو بالطبع. انالمحل بغير رأس مال سائل هو أسوأ من لا محل. فالافلاس هنا محقق. ان الموردين لايفتحون أيديهم بسخاء لاصحاب المحال الناشئين . واذن فلابد لى من مال حاضر ، وهذا المــال موجود ينتظرنى خلف أبواب البنك ، وعملية الاستيلاء عليه لم تلبث ان انتقلت من نطاق التصور الى دائرة الواقع المؤكد . وكونالسرقة شيئا غير مشروع أمر لم يقلقنى كثيرا . ولو كان مارولو مكانى لما تردد فى الاقدام عليها . انما الذى كان يقلقنى هو ما انتهى اليه أمر دانى تيلور ، وان كان مقضيـــا عليه على اى حال . ثم ان محاولة مستر بيكر الفاشلة لـكى يفعل مع دانى نفس ما فعلتـــه كانت تبريرا كافيا لعملى . ورغم هذا فان مسألة دانى بقيت بمثابة الجرح الملتهب فى اعماقى ، وكان على ان احتمل الجرح كما يحتمله من يخوض معركة ناجحة . ولعل الزمن كفيل بابراء هــذا الجرح فى يوم من الأيام .
كانت المسألة المباشرة الآن هى المال ، وقد انتهت اعداد الخطة بكل دقة .
ان القواعد التى ذكرها مورفى كانت ماثلة فى ذهنى تماما ، القاعدة الاولى : عدم وجود سابقة ــ لا سوابق لى على الاطلاق . القاعدة الثانية : عدم وجود شركاء ــ من المؤكد انه لاشريك لى فى التدبير أو التنفيذ . القـــاعدة الثالثة : عدم وجود امرأة ــ والواقع ان

مارجي الملقبة « بالصيادة الشابة » هى الوحيدة التى يمكن اطلاق هذا الوصف عليها ، ولم يكن فى نيتى باى حال أن أشرب الشمبانيا من حذائها . القاعدة الرابعة : عدم التبذير ـ والحقيقة انني ساستعين بهذا المال لسداد فواتير تجار الجملة ، وسوف اخفيه فى مكان امين لا تمتد اليه يد .

بقيت مسألة التعرف على الفاعل . انني سالبس قناع الفار ميكى ماوس ، ولن يبصر أحد شيئا آخر . وسارتدى معطفا واقيا قديما للمروللو ، ومثل هذه المعاطف متشابهة ، الى جانب قفاز من السيلوفان مما يباع فى كل مكان . وسيلقى القناع والقفاز فى « التواليت » حال اتمام العملية . اما المسدس القديم فسوف يسلم بعد انتهاء الغرض منه الى رئيس النقطة ستونى سميث باقرب فرصة .

وهناك قاعدة اخيرة أضفتها من عندى . عدم الطمع وتجنب فئات البنكنوت الكبيرة . فلو وجدت امامى حوالى ستة آلاف أو عشرة آلاف دولار من فئة العشرة او العشرين دولارا لكان هذا القدر كافيا وسهلا اخفاؤه .

وعلى هذا النحو يكون كل شىء على احسن مايرام .

ولم يكن يؤسفنى الا عدم وجود مستر بيكر فى البنك وقت العملية . لن يكون هناك سوى مورفى وزميليه هارى واديث . وكان التوقيت مرسوما بكل دقة . ففى الساعة التاسعة الا خمس دقائق اضع المكنسة فى المدخل . ثم البس « المريلة » ، واعلق الصنجة فى سلسلة « السيفون » لكى يتدفق الماء باستمرار فى «التواليت». فاذا جاء اى انسان سمع صوت المياه وفهم ماهومطلوب أن يفهمه. ثم المعطف ، والقناع ، والمسدس ، والقفاز ، وعلبة فارغة للنقود.

وفى تمام التاسعة يكون عبور الحارة ، ودفع الباب الخلفى، ولبس القناع ، والدخول عقب سماع صوت فتح باب الخزانة . ثم تهديد الموظفين الثلاثة بالمسدس لكى ينبطحوا على الأرض ، بالحركات طبعا ودون اى كلام . ولن تصدر منهم اية مقاومة ، لان جو مورفى قال ان المال مؤمن عليه ، ولا تامين على حياتهم هم . ثم أخذ النقود، ووضعها فى العلبة ، وعبور الحارة والقاء القناع والقفاز فى «التواليت» الجارى المياه ، ووضع المسدس فى اناء البترول كما كان ، وخلع المعطف ، وانزال « المريلة » كما كانت حول الوسط ، واخفاء النقود فى علبة القبعة ذات التجويف السرى ، واخذ المكنسة ، واستئناف

عملية كنس الرصيف ، لكي اكون تحت الأنظار عند الانذار بوقوع السطو . ان العملية كلها لن تستغرق اكثر من دقيقة واحدة واربعين ثانية ، بالتجربة والمران مرارا وتكرارا .

ومع ذلك ، وبرغم هذه الدقة المتناهية فى التخطيط والتنفيذ ، فانني لم اتمالك أن شعرت بقلبي يخفق انفعالا ، وبدا لي وانا انظر الى عقربي ساعة ابي الكبيرين انهما لايكادان يتحركان ، وكان الزمن قد توقف .

لقد مضت فترة طويلة منذ أن خاطبت « اصدقائي » لآخر مرة ، ولكنني اتجهت اليهم هذا الصباح بالحديث ، ربما تأثرا وانفعالا:

ـ أصدقائي . ان ما سوف تشهدونه هو لغز خفي . وانا اعرف انه يمكنني الاعتماد عليكم لالتزام الصمت . واذا كان بينكم من يخامره أي احساس بصدد الجانب الاخلاقي لهذا العمل ، فليتفضل بالخروج .

وتوقفت برهة ، ثم اردفت :

ـ لا اعتراض ! حسنا جدا . اذا سمعت فى اى وقت ان «معطبا» منكم ناقش هذا الامر مع الأغراب ، فسوف يكون جزاؤه الاعدام بالشوكة ... وانتهز هذه الفرصة فاوجه اليكم شكرى . لقد كنا جميعا هنا خداما متواضعين لتلبية الطلبات واشباع البطون ، وما كنت الا خادما مثلكم . أما الآن فهناك تغيير وشيك. سوف اكون منذ الآن فصاعدا السيد الآمر الناهي ، لكنني اعدكم انني ساكون سيدا طيبا وشفوقا ومتفهما . ان الوقت يقترب ايها الأصدقاء ، والستار يرتفع ، فالى اللقاء .

وعندما تحركت الى الباب الأمامي بالمكنسة ، سمعت صوتي يهتف : « داني ـ داني ـ أخرج من معدتي وخلصني من الغثيان! » .

وانتابتني رجفة عنيفة هزتني هزا حتى اضطررت ان استند الى المكنسة برهة قبل أن أفتح الباب .

كانت ساعة ابي يؤذن عقربها القصير بالتاسعة ، وعقربها الطويل بنقص ست دقائق . وسمعت دقاتها قوية فى راحة يدى كقلب قوى خفاق .

الفصل الخامس عشر

كان اليوم مختلفا عن سائر الأيام كما تختلف الـكلاب عن القطط والأسود عن الأبيض . ففيه امطرت السماء رغم شمس يوليو ولم تترفق بالحشود الزاحفة الى الشواطىء فى عطلة العيد لا تسترها سوى ملابس الصيف .

وكانت محال البقالة المماثلة لا تفتح قبل منتصف العاشرة، ولكن ماروللو كان يسبقها بنصف سـاعة لـكي يقتنص ما يستطيع من « الزبائن » . لقد فكرت أن اغير هذا الأسلوب عندما يؤول الأمر الي ، لأنه يوغر صدور أصحاب المحال بأكثر مما يبرره الربح . ولكن ماروللو لم يكن يحفل بهذا ، فهو اجنبي ، وهو مجرم وطائفية، وهو معتصر لدم الفقراء ، وهو عشرات أخرى من هـذه الصفات والمثالب . لقد كان من الطبيعي وقد سعيت الي القضاء عليه أن تبدو لي جرائمه ونقائصه واضحة مجسمة .

رحت أراقب عقرب الدقائق الطويل فى ساعة ابي يتحرك ثقيلا وانا اكنس بغلظة ومتوتر الأعصاب فى انتظار لحظة العمل السريع الحاسم . وكنت أتنفس من خلال فمي وقد شعرت بمعدتي تندفع الي رئتي كما لو كانت تشاركني فى التحفز للهجوم .

كان الناس فى يوم السبت هذا الرابع من يوليو قليلين فيما حولي. ولم اتمالك إن عجبت لتأخر موظفي البنك فى الحضور ، ولعلهم كانوا مثل فئران تلهو فى غياب القط بيكر . فهم الذين انشدهم واريد حضورهم لفتح البنك فى الموعد المحدد . وكانت الساعة أقل من التاسعة بدقيقة عندما اندفعوا خارجين من المقهى واسرعوا بعبور الشارع ، حتى هتفت بهم :

ـ اجروا ! اجروا !

فعلت وجوههم الابتسامات وهم يفتحون أبواب البنك ، وان كانوا فى غفلة عما هو مدخر لهم .

الآن قد حانت اللحظة الحاسمة . ينبغي الا افكر فى العملية كلها ، وانما اسير فيها خطوة خطوة ، وكل خطوة فى مكانها المرسوم ، طبقا

لما رسمت وتدبرت . وهكذا تحاملت على معدتي لكي تهبط الى مكانها الطبيعي ، واسندت المكنسة الى جانب الباب لكي تبدو لكل العيان . وبدأت اتحرك بسرعة فيها العزم والقصد .

ثم لمحت من زاوية عيني سيارة تدرج في الشارع وتوقفت لكي ادعها تمر .

ـ مستر هاولي !

استدرت بعنف كما يفعل رجال العصابات في أفلام السينما عندما يحاصرون وتسد عليهم المسالك. فرأيت السيارة تقف لدى الناصية ويهبط منها ـ يا الهي ـ ذلك المندوب الحكومي الذي تحدثت عنه.

ان الأرض الصلبة التي وقفت عليها مادت من تحت قدمي وترنحت كانعكاس صورة في المياه . ورأيته وانا مشلول مكاني يتقدم نحوي . وخيل الي كأنما استغرق في هذا دهرا . لكن هذا هو ما حدث ببساطة. ان البناء القوي الذي اقمت صرحه تخطيطا وتنفيذا ما لبث أن استحال الى تراب أمام عيني ، كما يتحول تمثال طال دفنه تحت الثرى بمجرد ان يلفحه الهواء .

لقد خطر لي أن اندفع الى « التواليت » وامضي في اتمام عملية السطو على البنك . لكنها لن تنجح الآن . وما كان لي أن انتهك القواعد التي أستنها جو مورفي . وأن كانت في الحق صدمة كبرى أن يتخلى الانسان عن خطة أطال التفكير فيها وتدرب عليها مرارا حتى لم يكن تنفيذها الا مجرد تكرار أخير. ولكنني مع ذلك نبذتها نبذا ، وانصرفت عنها نهائيا . فلم يكن لي من خيار ولا كانت لي حيلة ، وطافت براسي فكرة تقول : الحمد لله انه لم يحضر بعد هذا بدقيقة ، والا كان ذلك هو المصادفة القتالة التي يتحدثون عنها في القصص الجنائية .

قال الرجل ولابد انه استشف شيئا من حالي :

ـ مالك يامستر هاولي ؟ يبدو عليك المرض .

فقلت : أسهال .

ـ هذا شيء لايصبر عليه احد . اسرع . سأنتظر .

اندفعت الى « التواليت » ، واغلقت الباب ، وجذبت السلسلة لكي يتدفق الماء . ولم أضيء النور . وجلست في الظلام وأمعائي المضطربة في حركة مائجة . وبعد لحظة حدث ما لابد من حدوثه ، ورويدا تلاشت الضغوط التي كنت ارزح تحتها . ولم اتمالك أن اضفت قاعدة جديدة الى قواعد جو مورفي : في حالة حدوث

طوارىء ، غير خطتك فى الحال .

كان يحدث لى هذا من قبل فى الأزمات أو الخطر الشديد :كنت انفصل عن ذاتى واراقب وكأننى غريب يسجل ويرصد ـ أراقب نفسى وحركاتى وتفكيرى ، لكن فى منعة من التأثر بالانفعـالات المتولدة . وفى جلستى فى الظلام هذه رأيت الشخص الآخر يطوى خطته المحكمة ويضعها فى صندوق ويطبق عليهـا الغطاء ويواريها لا بعيد عن نظره فقط بل عن تفكيره . وبعبارة أخرى ماهو الا ان قمت فى الظلام وسويت ملابسى ووضعت يدى على الباب الرقيق حتى كنت من جديد بائع محل البقالة المستصنـد ليومه الحافـل بالعمل . لم يبق شىء من التخفى والليلاذ بالتكتم والسرية . ورحت على الأثر اتساءل ما الذى يريده منى هذا الشاب القادم ، بلا خوف الا من ذاك الاشفاق اليسير المتولد من خشية الاحتكاك بالبوليس.

قلت له :

ــ آسف لجعلك تنتظر . لا اتذكرما الذى اكلته حتى سبب هذا الاسهال .

فقال :

ــ هناك ميكروب دائر هذه الأيام . هذه الحالة حدثت لزوجتى فى الأسبوع المـاضى .

ــ ان هذا الميكروب كان يحمل مسدسا فى بطنى . ولولا اننى اسرعت ... هل من خدمة اقوم بها ؟ اتذكر انك كنت هنا قبـل الآن . ما هو عملك ؟ ..

فأجاب باسما :

ــ انا تابع لوزارة العدل . لكننى لست الآن فى مهمة رسمية. ولا اظن حتى ان الوزارة ستوافق ، لكن انا اليوم فى راحـة .

وصمت برهة . ثم أردف :

ــ الحكاية معقدة ، ولا اعرف تماما من اين ابدأ. انا فى الخدمة منذعشرسنوات ياهاولى، لكننى لم اصادف ابدا مثل هذه المسألة.

ــ ربما لوشرحت لى لامكن ان اساعدك . اظن ان اسمك والدر.

ــ رتشارد والدر .

ــ اسمع يامستر والدر . ان « الزبائن » سوف يهجمون بعـد قليل ، فقل لى ما هى مشكلتك . انني تكلمت مع مستر بيكر فى البنك ، وانت تطارد مستر مارولو ، رئيسى .

فقال بصوت خفيض :

ــ وقد تمكنت منه .
ــ لأى شيء ؟ ..
ــ دخول البلاد بصورة غير شرعية . ليس هذا ذنبي . انالوزارة تقذف الي بملف ، فأتتبعه ، وليس من شأني أن احاكمه .
ــ هل سيعملون على ترحيله ؟ ..
ــ نعم .
ــ هل يمكنه ان يعارض . هل يمكن ان أساعده ؟ ..
ــ لا. هو لايريد ذلك. لقد اعترف بجريمته . ويريد أنيرحل..
في هذه اللحظة دخل سبعة أو ثمانية « زبائن » ، فقلت له :
ــ انني حلوتك .
وانصرفت الى خلمتهم . ومن حسن الحظ انني كنت قد تأهبت لهذه المناسبة واستحضرت مايكفى لمواجهة الطلبات الخاصة بعطلة العيد .
وما ان فرغت بعد انصرافهم حتى قلت له :
ــ قل لى بسرعة ماذا تريد ؟ ..
ــ انني وعدت مارولو بالحضور الى هنا . انه يريد أن يعطيك المحل .
ــ انت مجنون . عفوا ياسيدتي . انني كنت اكلم صديقي .
ــ آه ، بالطبع . اريد لفائف فرانكفورتر تكفيخمسة أشخاص.
على هذه الصورة كان انقطاع الحديث مع صاحبى ، وعند استئنافه من جديد قال لي :
ــ الحقيقة انني اعاني من صدمة . ان عملي في الغالب مع المجرمين والمحتالين والنصابين ، فاذا وجدت بينهم شخصا مستقيما كان ذلك صدمة لك ولا شك .
ــ ماذا تقصد بكلمة « مستقيم » ؟ ان رئيسي لم يكن كريما في اى يوم . انه رجل لئيم .
ــ اعرف هذا . ونحن الذين جعلناه هكذا . انه صارحني وقد صدقته . قبل حضوره الى هذه البلاد كان يصدق الكلماتالمنقوشة على «تمثال الحرية» ، ويعي في ذاكرته منطوق «اعلان الاستقلال» و « وثيقة الحقوق » . ولكنه بعد هذا لم يتمكن من دخول البلاد . ومع ذلك فقد دخل . ساعده « انسان عطوف » بعد أن اخذ منه كل ما يملك وانزله بين أمواج الشاطىء لكي يخوضها حتى البر.ومضتمدة طويلة قبلما استطاع أن يفهم «الطريقة الأمريكية» ،

ولـكنه تعلم ، وتعلم ، حتى استطاع أن يقف على قدميه ويكون ثروته . وهذا هو السبب فى انه لم يتألم عندما وشى به أحدهم.
ــ وشي به ؟ ..
ــ بالتأكيد . كل ما لزم هو مكالمة تليفونية .
ــ من هو المتكلم ؟ ..
ــ من يعرف ؟ .. ان الجهاز الادارى كآلة . كل ماهو مطلوب هو أن تحرك المفاتيح فتمضي الآلة تلقائيا الى النهاية .
ــ ولمــاذا لم يقاوم ؟ ..
ــ انه تعب . ثم انه «قرف» . وقد جمع مالا ، ويريد العودة الى صقلية .
ــ مازلت لم أفهم حكاية المحل .
ــ انه اختبرك ووجد فيك الاستقامة ، فمال اليك .
ــ واذا كان مخطئا فى ظنه ؟
ــ ليس هذا رأيه . انه يريد أن يجعل منك رمزا أو تمثالا باقيا لشيء كان يؤمن به فى وقت ما . ان معى فى السيارة أوراق نقل ملـكية المحل . وكل ما هو مطلوب منك هو ملؤها .
وخرج الى السيارة وعاد بعد قليل ومعه مظروف منتفخ،وقال لى:
ــ لابد أن أذهب الآن . أمامى اربع ساعات فى السيارة لكى أعود الى زوجتي التى تكاد تجن من الانتظار . انني سـألته لو كانت عنده رسالة لابلاغها لك ، فقال : « قل له : حظا سعيدا » . هل عندك رسالة له ؟
ــ قل له : « صحبتك السلامة » .
وأقبلت موجة أخرى من « الزبائن » . فالقيت المظروف فى الدرج أسفل مسجلة النقد وقلبى مفعم بالأسى .

الفصل السادس عشر

مضى النهار سريعا ومع ذلك بدا وكأنه بلا نهاية .

وجاء جو مورفى وانا أوشك اغلاق ابواب المحل الأمامية . وقد حاولت ونحن نحتسى شرابا خفيفا من المعلبات أن اخبره بحكاية مارولو والمحل ، فوجدت اننى لا أستطيع ، حتى ولا الحكاية التى قيلت لى بدلا من الحقيقة التى أعرفها وحدى . وقد قال لى :

ـ يبدو عليك التعب .

ـ أظن هذا . انظر الى هذه الأرفف . لقد جردوها !

وأفرغت محتويات مسجلة النقد فى الكيس الرمادى المخصص لها ، ووضعت معها النقود التى جاءنى بها مستر بيكر ، وفوقها الظروف المنتفخ ، وحزمت عنق الكيس بقطعة دوبار . فقال لى :

ـ لايجب أن تترك هذا عرضة للأنظار .

ـ ربما كان ، تقول . سأخفيها فى مكان آخر .

ـ بالمناسبة ، هل تعرف ان غريزتى فى التكهن المسبق لاتكذب ؟ لقد استيقظت اليوم وعندى شعور قوى بأن البنك سوف يتعرض للسرقة هذا اليوم . اننا نضع أوتادا صغيرة تحت جرس الانذار الأرضى لئلا ندوس عليها خطأ . وكان أول مافعلته هذا الصباح هو اننى رفعت هذه الأوتاد . ومعنى هذا متى كنت واثقا من حدوث سطو . فكيف تفسر هذا ؟ ..

ـ ربما كان أحدهم خطط للسرقة وقرأت أنت أفكاره فعدل .

هل تعرف ياجو اننى من شدة التعب لن اتمكن من الكنس اليوم ؟

ـ لاتترك كل هذه النقود هنا الليلة . خذها الى البيت .

ـ ليكن ، مادمت تقول هذا . سأحملها كلها فى هذه الحقيبة الجلدية . هل قلت لك اننا سنقوم برحلة ؟

ـ نعم . أنت فى حاجة اليها . هل أنت مستعد للانصراف ؟..

ـ عندى بعض اشياء اريد ان اسويها . اذهب انت مع السلامة ياجو .

واول شىء فعلته بعد انصرافه هو الاتصال تليفونيا بمارى لكى

أقول لها انني سأتأخر قليلا ، فبادرت تقول بلهفة :
ـ نعم . لكن أسرع . أسرع . أسرع . عندي أخبار عظيمة ! عظيمة !.. عظيمة !..
ـ الا يمكنك ان تقوليها الآن ياحبيبتي ؟ ..
ـ لا . اريد ان ارى وجهك أولا ! ..
لبست معطفي وقبعتي واطفأت انوار المحل وجلست فوق المنصة مدلي الساقين . كان الهدوء سائدا ، وهو الهدوء الذي كنت بحاجة اليه . وشعرت في جلستي محشورا بين مسجلة النقد وبعض الأرفف بجسم مكتل يخزني اسفل ظهري . ولما تحسست جيبني عثرت على « تعويذة الحظ » التي كنت وضعتها ونسيتها . لقد اخرجتها الآن ورفعتها بين يدي وجعلت أحدق فيها . خطر بالأمس انني في حاجة اليها . فهل تراني نسيت اعادتها الى مكانها ، أم ان احتفاظي بها لم يكن مصادفة ؟ لا اعرف .
لم أكن بحاجة الى التفكير بقدر ما كنت بحاجة الى اعادة ترتيب افكاري . كنت بحاجة الى نوع من « البديل المؤقت » لكي الوذ به ريثما يتيسر لي أن اقيم البناء من جديد . كنت الآن اشبه بهذه الأرفف التي هاجمها « الزبائن » بضراوة وفتحوا في صفوفها هذه الثغرات العميقة واصبحت في حاجة الى ملئها وتسوية صفوفها لكي تتماسك وتنتظم من جديد . وهكذا وجدتني أقول لها :
ـ فلنصل من اجل اصدقائنا الراحلين . لكن الباقي علينا نحن معشر الأحياء ... آه يا الفيو ماروللو ! انني اتمنى لك الحظ والتوفيق والخلاص من الآم الجحود ونكران الجميل. انك ضحيت، لانك كنت انت ضحية . واردت بصنيعك ان تبقى شعلة الاستقامة مضيئة بعد ان اطفأوا فيك الشعلة افسادا واغواء وتلويثا .
فهل أكون أهلا لحمل الشعلة حتى تبقى منارا مشرقا وسراجا وهاجا ؟ ..

الفصل السابع عشر

كنت أستطيع ان أشعر ببيتى وانا لازلت عند الناصية ، بيت آل هاولى . فى الليلة الماضية رقد البيت قابعا خانعا فى الظلمة ، ولكنه بدا هذه الليلة يشع انفعالا . فالبيت ، مثل حجر الأوبال الكريم ، يتلون بالوان اليوم . والواقع ان مارى لم تكد تسمع وقع خطواتى فى الممشى الخارجى حتى اندفعت الى الباب الأمامى كشعلة ملتهبة ، قائلة :

ـ لايمكنك أن تتصور ابدا !

ـ قولى ياحبيبتى ماعندك ، بلا مقدمات تمثيلية .

ـ ان مارجى هى أحسن صديقة فى الدنيا كلها . انها ستشرف على الأولاد لكى نقوم برحلتنا وحدنا .

ـ هل هذه خدعة ؟ ..

ـ انني لم أطلب منها . انها تطوعت .

ـ انهم سوف يأكلونها حية ! ..

بل انهم مفتونون بها . انها ستأخذهم الى نيويورك بالقطار يوم الأحد ، وتبقى معهم الليل فى شقة صديقة ، ويوم الاثنين يشاهدون حفلة رفع العلم الجديد بانضمام الولاية الخمسين فى مركز روكفلر ، ويتفرجون على الاستعراض ، وكل شىء .

ـ انني لا اكاد أصدق .

ـ اليس هذا شيئا رائعا ؟ ..

ـ بل هو أروع شىء . ولذن فسوف نتمكن من الذهاب الى ضواحى مونتوك كما كنا نفكر .

ـ انني اتصلت فعلا بالتليفون وحجزت غرفة لنا .

ـ هذا مذهل ! اكاد انفجر من الدهشة ! أشعر باننى انتفخ !

وخطر لى ان اخبرها بحكاية المحل ، ولكن كثرة الأخبار المفرحة تؤدى الى التقلصات المعوية كما يقولون . ومن الخير أن أنتظر واخبرها بعد الوصول الى وجهتنا .

وجاءت ايلين الى المطبخ متسللة ، قائلة :

ـ بابا . ان ذلك الحجر الوردى قد اختفى من الدولاب ! ..
ـ هو معى . فى جيبى . هاهونا . ولك ان تعيديه الى مكانه .
ـ انك اوصيتنا الا ناخذه بعيدا عن مكانه بأى حال ! ..
ـ ومازلت أوصيكم بهذا ، والموت جزاء من يخالف .
فانتزعته بحركة اقرب الى الشراهة وحملته بين يديها الى غرفة الجلوس .
ورايت عينى مارى مسلطتين على بنظرات غريبة مكتئبة ، وقالت:
ـ لمــاذا أخذته يا ايثان ؟ ..
ـ من أجل الحظ ياحياتى ، وقد ثبت مفعوله !

الفصل الثامن عشر

أمطرت السماء يوم السبت ، الثالث من يوليو ، مطرا دسما أكثر من المعتاد . وأخذنا نشق طريقنا بالسيارة في الطرقات المبللة وفي غمار حركة المواصلات المتكالفة وشعورنا أقرب الى الاحساس بالضياع كطيور أطلقت من قفصها فانتابها الروع عندما واجهتها الحرية .

قلت لماري وقد جلست معتدلة القامة :

ـ هل انت سعيدة ؟ .. هل انت مرحة ؟ ..

ـ انني افكر في الأولاد . ترى ماذا يفعلون الآن ؟

ـ كل ما يمكن أن تتصوريه ، الا ان يفكروا فيما نفعله نحن .

ـ اظنك على حق . سأحاول أن انسى واتسلى بالمناظر الطبيعية في هذه المنطقة الجميلة من « لونج ايلاند » .

وكان البيت الخلوى الصغير الذى خصص لنا مؤلفا من غرفة واحدة نظيفة منسقة . وبعد أن تناولنا العشاء الذى امتزج بكثير من الشراب لم نستطع أن نغالب النوم الذى زحف الينا قاهرا غلابا بتأثير الرحلة الطويلة والاسترخاء الجم بعد طول كد وعناء . وكانت ماري أسبق مني ، كعادتها ، استسلاما لسلطان النوم .

واذا كان الفجر قد بزغ مقترنا برعد ، فانني لم أسمعه . وانما فتحت عيني على طبيعة مشرقة ذهبية اختلطت فيها ألوان الخلنج الزاهية بخضرة السرخس الباهتة وصفرة الكثبان الرملية مترامية حتى الأطلنطي التي كانت صفحته تتلألأ على البعد مثل صفحة من فضة مطروقة . وكان ثمة طريق يكسو بالحصى ينتظم هذه البيوت الصغيرة في شبه قرية خلوية قامت في قلبها قاعة كبرى للطعام يغشاها النزلاء جميعا .

وقصدت من فوري الى مكتب المدير وكان يحسبنا عند قدومنا من العشاق ، فقلت له :

ـ صباح الخير .

فسدد أنفه الى قائلا :

ـ هل نمتم نوما هنيئا ؟ ..
ـ جدا . هل يمكن ان احمل صحفة افطار الى زوجتي ؟
ـ ان الاكل يقدم هنا في قاعة الطعام ، من السابعة والنصف الى التاسعة والنصف .
ـ لكن اذا حملتها بنفسي ...
ـ هذا مخالف للاصول هنا .
ـ الا يمكن ان نخالفها مرة ؟ .. انت تعرف الظروف .
قلت هذه العبارة عامدا ، اذ كانت هي ما يشتهيه مثله ، فقال وقد شاع السرور في وجهه :
ـ السيدة تشعر بالخجل . اليس كذلك ؟ ..
ـ انت تعرف مثل هذه الظروف .
ـ لا اعرف ما الذي يقوله الطباخ في هذا ...
ـ اطلب منه وقل له هناك دولار ينتظره واقفا على حافته :
كان الطاهي يونانيا ، وقد وجد الدولار جذابا . وفي الوقت المحدد الفيتني احمل صفحة حافلة مكسوة بغطاء ، وقد زينتها في الطريق بباقة من الأزهار البرية تجميلا لمادبة الافطار الملكية التي حملتها الى حبيبة الروح . ولعلها كانت مستيقظة عندما دخلت عليها ، ولكنها فتحت عينيها وهتفت :
ـ انني اشم قهوة. آه. آه ! يا للزوج الحبيب! وازهارايضا !
ثم افطرنا وشربنا القهوة مرتين ، وماري متكئة على وسادة في الفراش وقد بدت اكثر نضرة وبراءة من ابنتها .
وعندما حان الوقت الذي قدرته مناسبا قلت لها :
ـ استعدي للمفاجاة . عندي أخبار محزنة ومفرحة .
ـ هل اشتريت المحيط ؟ ..
ـ ان مارولو ضبط بتهمة دخول البلاد بطريقة غير شرعية ، وسيقومون بترحيله .
ـ هذا شنيع ! ماذا سنفعل . ماذا ستفعل انت ؟ ..
ـ انتهى وقت اللعب . انه باعني المحل ـ او بالأحرى باعه لك. فهو مالك على كل حال . وسيقوم بنقل الملكية الي ، لانه يودني. والواقع انه باعني المحل نظير ـ ثلاثة آلاف دولار .
ـ يعني ... يعني ان المحل ملكك الآن ؟ ..
ـ نعم .
ـ ولم تعد بائعا ! . . لم تعد بائعا ! ..

وانكفأت بوجهها على الوسادة وانخرطت فى بكاء من اعماق صدرها، كبكاء عبد رقيق قطعوا الطوق من حول رقبته .

تركتها وخرجت الى الساحة وجلست فى الشمس الى ان تمالكت ماري وغسلت وجهها ومشطت شعرها وارتدت ملابسها ونادتنى .

لقد بدت الآن مختلفة تماما . كانت رافعة الرأس شامخة . ولا عجب ، فقد أصبحنا من الأشراف مرة أخرى .

ـ الا يمكن أن نفعل شيئا لمساعدة مستر مارولو ؟ ..

ـ لايمكن .

ـ كيف حدث هذا ؟ .. من اكتشف أمره ؟ ..

ـ لا أعرف .

ـ انه رجل طيب . ما كان يجب أن يفعلوا معه هذا . كيف كان مسلكه ؟ ..

ـ احتمل بكرامة وشرف .

وتمشينا على الشاطىء كما كنا نفكر أن نفعل ، وجلسنا بين الرمال ، والتقطنا الأصداف الصغيرة البراقة وأراها كل منا لصاحبه، وأبدينا اعجابنا بالطبيعة من بحر وهواء ، وضياء وشمس لطفت من حدتها الريح ـ وكأن الطبيعة كانت تستمع الى اطرائنا .

ولكن مارى بدت مشغولة البال . وأحسبها كانت تريد العودة فى وضعها الجديد لكى ترى النظرة المختلفة فى أعين النساء ، والنبرات المتغيرة للتحيات فى شارع « هاى » . فهى لم تعد « مارى هاولى المسكينة ، التى تقوم بأعمال شاقة فى البيت» . لقد أصبحت مسز ايثان هاولى ، وسوف تظل كذلك على الدوام .

ومع ذلك فقد بقيت طول اليوم لأن ثمنه مدفوع . وتناولنا الغداء فى القاعة العامة ، وكانت حركاتها الرصينة ووقارها العادى شيئا خيب آمال صاحب النزل الذى كان أكثر انتعاشا بقدوم العشاق. وكانت خيبة أمله أشد عندما دنا من مائدتنا قائلا : ان هناك مكالمة تليفونية لمسز هاولى . فقلت لمارى :

ـ من يعرف اننا هنا ؟ ..

ـ مارجى بالطبع . اننى قلت لها من اجل الأولاد . آه ! يارب لايكون الآن ... أنت تعرف انه متسرع ! ..

وعادت وهى ترتعش قائلة :

ـ هل سمعت الخبر ؟ .. هل سمعت الراديو ؟ ..

ـ هل يمكنك ان تخبرنى بسرعة ؟ ..

ــ ان آلان فاز فى المسابقة ، ونال جائزة التفوق ، وســـاعة ، سوف يظهر فى التليفزيون ... هل يمكن أن تصدق هـــذا ؟.. خصية مشهورة فى العائلة ! ..

ــ لايمكن أن أصدق هذا ! ..

ــ بل صدق ! تصور ان ابننا واحد من خمسة أولاد فى الولايات لتحدة كلها ينال جائزة التفوق ، ويظهر فى التليفزيون ! ..

ــ وساعة أيضا ! ترى هل يمكنه أن يعرف الوقت ؟ ..

ــ ايثان ! اذا كنت تهزل هكذا ، فسوف يظن الناس انك غيور ن ابنك ! ..

ــ هذا من تأثير الدهشة فقط . كنت أظن ان أسلوبه فى الكتابة ثل مستوى أسلوب الجنرال ايزنهاور ! .. ان آلان ليس عنـــده يطان الوحي ! ..

ــ أنا أعرفك يا ايثان . انك تحب دائما أن تتحامل على أولادك. كنك انت الذى تفسدهم . اريد ان أعرف ــ هل ساعدته فى تابة موضوع المسابقة ؟ ..

ــ ساعدته ؟ انه لم يدعنى حتى اراه ! وما هو شعور ايلين ؟

ــ انها فخورة مختالة مثـــل طـــاووس ! وكانت مارجي منفعلة تحمسة لدرجة انها كادت لا تستطيع الكلام . ان الجرالد تريد مل أحاديث معه ــ والتليفزيون . انه سيظهر فى التليفزيون . هل كرت انه ليس عندنا جهاز تليفزيون لكى نشاهده ؟ ..

ــ سيكون لنا جهاز غدا .

ــ صحيح يا ايثان ؟ .. نسيته انك الآن صاحب المحل . لابد ا أن نعود الآن . انهم سيعودون بقطار الساعة السابعة والثلث. جب أن نكون فى البيت لاستقباله .

واطرقت مارى براسها برهة كأنما تصلى ، وقالت :

ــ انت تملك المحل ، وآلان اصبح شخصية مشـــهورة . من ان يصدق ان كل هذا يمكن ان يحدث مرة واحدة . يجب أن كون هناك عند وصولهم . اذهب لدفع الحساب بينما أحزم أدواتنا.

الفصل التاسع عشر

سلك ابني مسلكا متزنا . كان هادئا ولينا معنا . فلم يطلب ثأرا ، ولم يأمر باعدام . وانما تقبل التكريم الذى ظفر به ، والتهانى التى ازجيناها اليه قبول من يعتبر ان هذا حق له ، دون ما غرور ، وكذلك فى غير ما تواضع متكلف . وما لبث ان تقدم الى مقعده فى غرفة الجلوس وادار جهازه الاذاعى الصغير قبلما تم اشتعال كل « الصواريخ » المائة التى اوقدناها احتفاء بفوزه فى المسابقة الوطنية الكبرى . ولقد بدا واضحا انه اغتفر لنا كل مضايقاتنا وتدخلاتنا وتطفلاتنا . والحق اننى لم أشهد فى حياتى ابنا يتقبل العظمة بمثل هذه السماحة .

كانت هذه ليلة العجائب حقا . واذا كان صعود الآن السهل الى السماء باعثا على الدهشة ، فان رد الفعل من جانب ايلين كان أبعث على الدهشة والعجب . كنت اظن من دراستى لأطوارها عن كثب انها سوف تستسلم لدواعى الغيرة والحسد ، ولكنها خيبت ظنونى ، إذ كانت هى المحتفية الأولى بفوز اخيها ، وكانت هى التى حكت لنا القصة وقالت انهم بينما كانوا جلوسا فى شقة انيقة فى الشارع السابع والستين بعد أمسية ساحرة ، وهم يشاهدون التليفزيون ، واذا نبأ فوز آلان يذاع فى نشرة الأخبار . والواقع ان ايلين كانت هى التى اخذت تسهب فى وصف ما اعقب ذلك من فرحة غامرة وانفعالات باهرة ، فى حين جلس آلان وهى تحكى هذا صامتا هادئا ، خصوصا عندما شرحت لنا كيف انه سوف يظهر فى التليفزيون مع الأربعة الفائزين الآخرين ويقرأ موضوعه الفائز ، بينما يسمعهم ويشاهدهم الملايين من المواطنين . وفى خلال ذلك كانت مارى سعيدة قريرة العين لا تنفك عن الاطراء والتحدث بالنعمة ، ولكننى عندما نظرت الى ناحية مارجى الفيتها واجمة ومنطوية على نفسها شيئا ما ، كما فعلت يوم قراءتها للطالع ، ولم تلبث ان استأذنت فى الانصراف رغم الحاحنا عليها فى البقاء .

وقالت مارى على الأثر :

ــ اننا لم نخبرها بموضوع المحل .

ــ دعي ذلك الآن . لا نريد ان نسلب « صــاحب الفخامة » حقه الـكامل في الاستئثار بالليلة لنفسه . اين ايلين ؟ ..

ــ انها ذهبت للنوم . وهذا بعد نظر منها . وانت يا آلان . هذا يوم عظيم لك ولنا . الا ترى الآن ان الوقت قد حان للنوم؟

فأجاب آلان متعطفا : اظن انني ساجلس هنا فترة .

ــ لـكنك محتاج الى الراحة . فنحن الآن في منتصف الليل .

ــ انا مرتاح هكذا .

ولمـا استنجدت بي ماري قلت لها :

ــ ليكن ما يريد ياعزيزتي . انه سوف ينام حتى الظهر غدا . أما انت وانا فعلينا أن نستيقظ في الساعة السادسة .

وكانت ماري أول النائمين . وبعد نصف ساعة سمعت صرير درجات السلالم ، فعلمت أن ابننا المشهور قد صعد للنوم .

وبينما كنت اراقب البقع الحمراء وهي تتراقص امام عيني في الظلام ، سمعت ايلين وهي تتسلل هابطة السلالم فلم اتبعها هـذه المرة ، اذ سمعت بعد قليل صرير المفتاح في قفل الدولاب ، وعلمت أن ابنتي عادت مرة أخرى الى ضم « الحجر السحري» الى صدرها لـكي يعطيها شحنة عاطفية .

***

ذهبت الى المحل في الصباح مبكرا . وقد فتحت مظروف البنك الذي أعطانيه مستر بيكر وأخرجت منه ثلاثين ورقة بنكنوت من فئة المائة دولار وتركت العشرين ورقة الباقية . ان الثلاثة آلاف دولار سوف تكون رصيد الأمان لـكي أتمكن من موازنة اقتصاديات المحل . أما الألفا دولار الباقية فسأعيدها الى حسـاب ماري في البنك ، على ان اعيد الثلاثة آلاف بعد استقرار الأعمال . وقد وضعت مبلغ الثلاثة آلاف دولار في المحفظـة الجديدة حتى بدت منتفخة في جيبي الخلفي . وانتقلت بعد ذلك الى المخزن حيث جئت منه بصناديق المعلبات وفتحتها واخذت أكدسها في الأرفف الخاوية، بينما دونت في ورقة كافة السلع التي كان علي أن أطلبها .

ولابد ان السنين تختلف بعضها عن بعض في المناخ وفي «المزاج» مثلما تختلف الأيام ايضا . فقد كان عام ١٩٦٠ هذا عام التغيير ــ العام الذي طفت فيه المخاوف المـكنونة الى السطح ، ولم يعد السخط خامدا بل أخذ يتغير تدريجا مستحيلا الى غضب . ان

هذا الذى وصفت لم يكن احساسى انا فقط ولا احساس «بايتاون» أيضـــا ، بل كان الطابع القومى العام . فمن قريب ســـوف تعلن الترشيحات لانتخابات الرئاسة ، وبدا الجو كله مشحونا بسخط يوشك ان يتحول الى غضب بما يجلبه الغضب من انفعالات . بل لم يكن هذا حال الأمة الامريكية وحدها ، فقـــد كان العالم كله يضطرب بالقلق والتوتر وعدم الاستقرار كلما تطور الســـخط الى غضب ويبدأ الغضب يلتمس متنفسا له فى العمل ـ اى عمل طالما كان طابعه العنف . كانت افريقيا وامريكا الجنوبية واوربا وآسيـــا والشرق الأوسط كلها مباءات للقلق والتوتر وعدم الاستقرار مثل خيل السباق عندما تقف لدى الحاجز متحفزة للانطلاق

ولقد كنت على يقين ان يوم الثلاثاء هذا الخامس من شهر يوليو سوف يكون يوما مشهودا أكثر من سائر الايام ، وكان احساسى يحدثنى بأنه ستقع فيه احداث غير عادية ، وكان منها على سبيل المثال ماحدث من حضور مستر بيكر الى البنك قبل موعده بساعة. فقد طرق على باب المحل الأمامى قبل أن أفتح للعمل ، فأدخلتـــه واغلقت الابواب . وقال من فوره :

ـ يا للشناعة ! .. انني كنت معزولا عن العالم . وقد علمت حالمـــا سمعت .

ـ أية شناعة تقصـــد ياسيـــدى ؟ ..

ـ عجبا ! اقصد الفضيحة ! ان هؤلاء الرجال هم اصدقائى ، اصدقائى القدماء . لابد لى أن افعل شيئا .

ـ انهم لن يستجوبوا قبل الانتخابات ـ لقـــد وجهت اليهم الاتهامات فقط .

ـ اعرف هذا . الا يمكن أن نصدر بيانا عن اعتقادنا فى براءتهم ؟ ولو اعلانا مدفوع الاجر اذا لزم الأمر .

ـ فى أى جريدة ياسيدى ؟ ان جريدتنا لن تصـــدر قبـــل يوم الخميس .

ـ على أى حال لابد من عمل شىء .

ـ صدقنى يا سيدى .

كان هذا الكلام اقرب الى الشكليات . ومع ذلك فقـــد بدا مشحونا بالقلق حقا . وعاد يقول :

ـ ان الجماعة المتطرفة المجنونة سوف تفسد انتخابات البلدة ما لم نفعل شيئا . لابد لنا من تقديم مرشحين جدد . أن ماحدث

لأصدقائنا شيء بشع ، لكنهم أول من يعرف اننا لن ندع الجماعة المتطرفة تسيطر على الأمور .

ـ انهم فى غم وحزن . ولم يجدوا وقتا للتفكير والتدبر . هل جاء ماروللو ؟ ..

ـ انه أرسل صديقا . وقد اشتريت المحل بثلاثة آلاف دولار .

ـ هذه صفقة . من أرسله عنه ؟ المافيا ؟

ـ مندوب الحكومة الاتحادية . وبدا أن ماروللو كان يودنى . ورايته يقطب فجاة مفكرا ، ثم قال :

ـ لماذا لم افكر فى هذا ؟ انه الرجل المطلوب . من اسرة طيبة ، وأهل للثقة ، ومن الملاك ورجال الأعمال ، وشخصية محترمة ، وليس لك عدو فى البلدة . لاشك انك أنت الرجل المطلوب .

ـ أى رجل ؟ ..

ـ اداري البلدة .

ـ انني لم أكن من رجال الأعمال الا منذ يوم السبت .

ـ انت تعرف ما اقصد . يمكننا أن نجمع حول شخصك وجوها جديدة محترمة .

ـ من بائع فى محل بقالة الى اداري البلدة ؟ ..

ـ لم يفكر أحد قط أن يكون سليل اسرة هاولى بائعا فى محل بقالة .

ـ كان هذا تفكيري ، وتفكير مارى .

ـ لكنك لست كذلك . يمكننا اعلان هذا الاختيار اليوم قبل أن تقرر الجماعة المتطرفة المجنونة قرارها . انني انصحك يا ايثان أن تبيع المحل . سوف تكون شخصية كبيرة القدر بما لايسمح بأن تقف لخدمة « الزبائن » . الم تسمع شيئا عن داني ؟

ـ لا حتى الآن .

ـ ما كان يجب ان تعطيه نقودا .

ـ ربما . كنت أظن انني اعمل لصالحه . قل لى يامستر بيكر . ما الذى حدث للسفينة « بيل آدير » ؟ ..

ـ ما الذى حدث ؟ .. انها احترقت وغرقت فى الميناء .

ـ كيف حدث هذا ياسيدى ؟ ..

ـ غريب أن تسأل فى هذا الوقت ! .. انا لا أعرف الا ماسمعته . كنت وقتها صغيرا ولا اتذكر . ان تلك السفن العتيقة كانت مشبعة بالزيوت . ولابد ان واحدا من البحارة ألقى عود ثقاب . وكان جدك الكابتن هاولى هو الربان . واظن انه كان وقتها على الشاطىء .

ـ وهل وجدت مشكلة بخصوص التامين ؟ ..
ـ ان شركات التامين ترسل عادة محققين من جانبها . ولـكن بعد وقت حصلنا على مبلغ التامين . اسرة هاولى واسرة بيكر .
ـ كان جدى يظن ان النار اضرمت فى السفينة عمدا .
ـ ولمـاذا ، بحق السماء ؟ ..
ـ الحصول على قيمة التامين . فان صـناعة صيـد الحيتان واستخراج زيوتها كان قد فات اوانها .
ـ لماذا تنبش هذه الأشياء القديمة يا ايثان ؟ لقد حدثت منذ زمن طويل .
ـ من البشاعة حرق سفينة . انها كجريمة قتل . انني ساعمل على انتشال قاعها من البحر يوما ما . انني اعرف مكانه . على مسافة نصف كابل بحرى من الشاطىء .
ـ ولمـاذا تفعل هـذا بالله ؟ ..
ـ لـكى ابحث ان كان ماحدث لم يكن مدبرا . على كل يحسن ان تذهب الآن الى البنك لـكى تبارك فتح الخزانة . واريد انا ان افتح المحل ايضا .
ولم يكد بيكر ينصرف حتى جاء بيجارز ايضا . ولابد انالمسكين كان يراقب فى الخارج وينتظر انصراف بيكر . وقد بادرنى على الفور قائلا :
ـ هل فـكرت فى اقتراحى ؟ ..
ـ اظن ان ستة فى المـائة احسن .
ـ لا اعرف ان كانت ادارة محلات « ب . ب » سوف تقبل .
ـ المسألة متروكة لها .
ـ ربما يوافقون على خمسة ونصفه فى المـائة .
ـ وربما تدفع انت النصف فى المـائة الباقى .
ـ يا لطيف ! كنت اظنك سـاذجا . هل يمكن أن آخـذ « الطلبية » الـكاملة اليوم ؟ ..
ـ غدا افضـل و « طلبية » اكبر .
ـ ماهذا ؟ لابد انك اصكت رئيسك من منته ! هل تظن ان هـذا فى قدرتك ؟ ..
ـ انتظر غدا لترى .

***

كانت حركة العمل خفيفة يوم الثلاثاء وهذا بالمقارنة بيوم السبت

الماضي . فقد اخذ الناس مهلة كي يتكلموا من « الفضيحة » ، قالوا انها بشعة ، محزنة ، مخزية ، ولكن مسلية ايضا . والحق انهم لم يلابسوا فضيحة منذ مدة طويلة . ولم يكن اهتمامهم موجها الى المنافسات الانتخابية فى البلاد عامة بقدرماكان مركزا فى «نيوباليباون» لمعرفتهم بالرجال الذين راحوا يرقصون فوق قبورهم .

وحوالى الظهر جاءني ستونى سميث رئيس نقطة الشرطة وكان يبدو متعبا محزونا . وقد أخرجت المسدس القديم من علبة الزيت وقدمته له قائلا :

ــ خذه بعيدا عنى . انه يثير اعصابى .

ــ امسحه أولا . انه سلاح قديم بطل استعماله . قل لى ، هل عندك احد يمكن يحل محلك هنا ؟ ..

ــ لا ..

ــ اين مارولو ؟ ..

ــ خارج البلدة .

ــ اظن انه لابد أن تغلق المحل بعض الوقت .

ــ لماذا ؟ ..

ــ نريد أن تذهب معنا الى الأرض المملوكة لداني تيلور والتى كان فيها قصر العائلة القديم قبل أن يتهدم .

ــ داني تيلور ؟ .. ماذا جرى ؟ ..

ــ يؤسفنى أن اقول اننا عثرنا فى بدروم المنزل على صندوق ويسكى فيه زجاجتان فقط خاليتان ، وزجاجة حبوب منومة . والظاهر انه بقى فى هذا المكان المهجور مدة طويلة وتعرض وجهه للنهش ــ ربما من القطط . هل تعرف علامات فى جسده يمكن بها أن تتعرف عليه ؟ ..

ــ لا اريد أن انظر اليه .

ــ ومن يريد ؟ هل تعرف علامات ؟ ..

ــ اتذكر وجود اثر جرح من اسلاك شائكة فوق ركبته اليسرى . ووشم قلب مثل هذا ، احدثناه ونحن صبيان بشفرة حلاقة وصبغناه بالحبر .. ان الوشم لايزال ثابتا عندى ، كما ترى .

ــ هل من علامات أخرى ؟ ..

ــ نعم . هناك ايضا اثر جرح كبير تحت ذراعه اليسرى .

ــ اظن ان هذه كلها علامات كافية . ولا اظن اننا سنحتاج الى الذهاب . سندع المحقق يتأكد بنفسه . وسيكون عليك أن تؤدى

الشهادة من هذه الجروح اذا كان هو داني تيلور .
ـ ليكن . لكن لاتدعني أراه ياستوني . انه كان .. انه كان صديقي ، كما تعرف .
ـ بالتأكيد . قل لي يا ايثان . هل صحيح ما سمعته من ترشيحك لوظيفة اداري البلدة ؟ ..
ـ هذا خبر جديد في سمعي . هل يمكنك أن تبقى هنا دقيقتين، ريثما اعبر الشارع وآتي بشراب ؟ ..
ـ آه ! انت معذور . اذهب بسرعة . لابد ان اجاري اداري البلدة الجديد .
وجئت بالشراب . وعندما انصرف ستوني وضعت لافتة على المحل كتبت فيها « مغلق حتى الساعة الثانية » ، ثم اغلقت الابواب وأسدلت الستائر .
وجلست في محلي الجديد ، حليف وحدة موحشة تعتصرقلبي .

الفصل العشرون

فى الساعة الثالثة الا عشر دقائق خرجت من باب المحل الخلفى ودرت حول الناصية ودخلت البنك من الباب الأمامى . ولما رآنى جومورفى تطلع الى بتحفظ قائلا :

ــ لكن أتكلم عن ذاتى يا ايثان . أنا أعرف انه كان صديقك الحميم .

ــ شكرا .

وعندما رآنى مستر بيكر قال لى بهدوء :

ــ هل تخلو لحظة يا ايثان ؟ ..

لم أجد فائدة من تأجيل المواجهة ، فدخلت الى مكتبه. واغلق الباب . وبعد أن جلست قال لى :

ــ حادث محزن .

ــ نعم .

ــ أنا متأكد انك كنت تنوى الخير بالنسبة له .

ــ كنت أظن انه سوف يستفيد من الفرصة

ــ بصرف النظر عن المأساة والخسارة ، هناك مشكلة . هل تعرف ان كان له أقارب ؟ ..

ــ لا أظن .

ــ كل انسان عنده مال يكون له أقارب .

ــ لم يكن عنده مال .

ــ كان عنده الأرض الواسعة المتبقية من بيت أسرته المحترق .

ــ أحقا ؟ .. أرض فضاء خربة وبدوم كالقبر ! ..

ــ اسمع يا ايثان . قلت لك من قبل اننا نخطط لاقامة مطار يخدم الاقليم كله . ان الأرض الفضاء مستوية السطح . واذا نحن لم ننتفع بها فسوف نتكلف الملايين لتمهيد مدارج للمطار بين التلال . وحتى لو لم يكن له ورثة ، فسوف تنتقل المسألة الى المحاكم ، وتضيع شهور .

ــ مفهوم . يحسن الآن ان أعود الى المحل .

ـ هو محلك الآن .
ـ احقا ؟ نسيت . انني أتعود على هذا بصعوبة .
ـ نعم . تنسى . ان النقود التى أعطيتها له كانت نقود مارى. انها لن تراها بعد الآن . انك بعثرتها .
ـ كان دانى يود مارى . وكان يعرف ان النقود لها .
ـ ويكفيها هذا فخرا !
ـ انه فعل شيئا حسبته مزاحا . انه اعطانى هاتين الورقتين.
وابرزت من جيبى الداخلى الورقتين المشهد عليهما ، وكنت اعرف انني سأبرزهما يوما على هذه الصورة .
بسط مستر بيكر الورقتين فوق مكتبه ونظر اليهما . رايت عضلات اذنيه تختلج وهو يقرأ . وبعد أن أعاد القراءة وتطلع الى ، رايت الخوف باديا فى هيأته . لقد رأى أمامه شخصا لم يكن يشعر بوجوده . ومضت فترة قبلما استطاع أن يتمالك ويتوازن ، فقال بلهجة واقعية :
ـ ما هو الثمن الذى تطلبه ؟ ..
ـ واحد وخمسون فى المائة .
ـ من ماذا ؟ ..
ـ من الهيئة التى ستقوم بمشروع المطار ، أو الشركة ، أو سمها ما شئت .
ـ هذا مضحك .
ـ انت تريد مطارا . والمطار الوحيد الصالح ملكى .
راح يمسح زجاج نظارته . ونظر الى كل مكان حوله الا نحوى. واخيرا قال :
ـ هل تدبرت ما تفعله الآن يا ايثان ؟ ..
ـ نعم .
ـ وهل تشعر انك تفعل شيئا طيبا ؟ ..
ـ اظن ان شعورى كشعور الرجل الذى قدم له زجاجة ويسكى وحاول استدراجه لتوقيع الورقة .
ـ هل اخبرك بهذا ؟ ..
ـ نعم .
ـ انه كذاب .
ـ ربما . وربما كانت هذه الأوراق زائفة .
وسحبتهما من أمامه برفق وطويتهما واعدتهما الى جيبى فقال :

ـ هذه الوثيقة قانونية ، مؤرخة ، ومشهد عليها ، وواضحة . ربما كانت نيته ان يعطيك درسا اخلاقيا فى التضحية والايثار.
ـ يامستر بيكر . لم يوجد فى اسرتى احد حرق سفينة ! ..
ـ سوف نتكلم يا ايثان . سوف نقوم بأعمال . سوف نكون اموالا . ان بلدة نامية سوف تثب الى العمران من حول الأرض الفضاء الخربة . اظن انه لابد لك الآن أن تصبح اداري البلدة .
ـ لايمكنني ياسيدى . ان هذا سوف يشكل تضاربا فى المصالح. اناسا محزونين الآن قد اكتشفوا هذا بعد فوات الأوان .
تنهد ، وكأنما خشى ان يثير كلامى شيئا يعتلج فى صدره. ولم البث أن نهضت ووضعت يدى على مسند المقعد وقلت له :
ـ سوف تكون احسن حالا ياسيدى عندما تعتاد على الحقيقة الواقعة ، وهى اننى لست مغفلا ساذجا يسهل ابتلاعه .
ـ لمــــاذا لم تشركني فى اسرارك ؟ ..
ـ ان شريك الخفاء فى خطر .
ـ اذن تشعر انك ارتــكبت جريمة .
ـ لا . ان الجريمة هى التى ارتكبها غيرى . لابد لى الآن من فتح المحل ، حتى ولو كان محلى الخاص .
وكانت يدى على مقبض الباب عندما سألنى :
ـ من وشى بماروللو ؟ ..
ـ اظنك أنت ياســـــيدى .
فوثب على قدميه ، بيد اننى اغلقت الباب خلفى وعدت الى محلي

الفصل الحادي والعشرون

كان بيت هاولى متلألأ بالانوار والزخارف عندما عدت . وعرفت ان المناسبة هى الاحتفاء بفوز آلان فى المسابقة القومية واعداد عشاء عائلى خاص لهذه المناسبة الفذة .

وعندما مررت بغرفة آلان وفتحت الباب وجدته واقفا امام المرآة وقد اصطنع شاربا اسود صغيرا من الأصباغ ولبس ربطة عنقى المنقطة . ولكنه ارتبك عند دخولى وقال معتذرا :

ـ اننى اتمرن على الدور .

ـ الحقيقة يابنى اننى فى غمرة الفرح نسيت ان اقول كم انا فخور بك .

ـ هى ... هى مجرد بداية .

ـ بصراحة ، لم اكن اظن انك كاتب قدير مثل رئيس الجمهورية. اننى فى الحقيقة مندهش بقدر ما انا مسرور. متى ستقرأ موضوعك امام العالم ؟ ..

ـ يوم الأحد ، الساعة الرابعة والنصف . وسأذهب الى نيويورك . ستقوم طائرة خاصة بنقلى .

ـ حسنا . هى قفزة كبيرة فعلا اذ تكون واحدا من خمسة فى البلاد كلها .

وبدأ يزيل الشارب . ورأيته والدهشة تأخذ بمجامعى أن معه مجموعة كاملة من أدوات الماكياج .

قلت له : حدث كل شىء لنا مرة واحدة . هل تعرف اننى اشتريت المحل ؟ ..

ـ نعم . سمعت .

ـ حسنا . عندما تنتهى الضجة ساحتاج الى مساعدتك .

ـ ما قصدك ؟ ..

ـ قلت لك قبل الآن . لكى تساعدنى فى المحل .

ـ لايمكننى أن أفعل هذا .

ـ لايمكنك ماذا ؟ !

ـ عندى مواعيد لأحاديث اذاعية وتليفزيونية متعددة . وهناك مسـابقة « فوازير » جديدة ساشترك فيها . وهكذا ترى اننى مشغول وليس عندى وقت .

ورش راسه بسائل من مضخة شعر . فقلت له :

ـ اذن فقد جددت لنفسك المستقبل ، أليس كذلك ؟ ..

ـ هى مجرد بداية ، كما قلت لك .

ـ لا انوى ان اطلق كلاب الحرب هذه الليلة . سوف نتناقش فى هـذا فيما بعد .

ـ هناك شخص من محطة اذاعة «ن.ب.سى» حاول أن يتصل بك تليفونيا . ربما كانت المسالة متعلقة بعقد يريدون عمله معى ، لاننى دون سن الرشد .

ـ هل فـكرت فى المدرسـة ياولدى ؟ ..

ـ ومن يحتاج الى المدرسة اذا كان امامه عقد ؟ ..

اسرعت بالخروج واغلقت الباب خلفى ، وفى الحمام اسرفت فى انزال المـاء البـارد على جسدى لـكى اكبح جماح غضبى الجائح . وعنـدما خرجت نظيفا لامعا متانقا متعطرا بعطر مارى عادت الى سيطرتى على اعصابى .

وجلسنا الى الوليمة التى كانت حافلة بالدجاج المشوى والفطائر. وقد طلبت أن نشرب نخب « البطل » متمنيا له الحظ السعيد ، واختتمت مرددا :

« وبعد شـتاء احزاننـا الذى اكفهر واستطال
جاء الآن صيفنـا المشرق بعراض الآمال »

فقالت ايلين : هـذا كلام شكسبير .

ـ نعم . لكن من اية مسرحيـة ؟ .. ومن القائل ؟ .. وفى اية مناسـبة ؟ ..

فلم يرد احد .

وبعد ان ساعدت فى نقل الاطباق الى المطبخ قالت مارى التى كانت لاتزال تحت تاثير النشوة بعد ان لاحظت ضيقى الـكامن :

ـ لا تضايق نفسك . سيعرف كل شىء فى وقته . ارجو أن تـكون صـبورا معه .

ثم اضافت بعد برهة :

ـ هناك رجل اتصل بك من نيويورك . اظن ان المسالة بخصوص

الآن . أليس من المثير انهم سيرسلون اليه طائرة خاصـــة . انني لا اكاد اصدق انك الآن مالك المحل . والجميع يتكلمون عن قرب اختيارك اداري البلدة .
ـ لن يكون هذا . امامي مشروع اعمال سيجعل هذا مستحيلا. انا مضطر للخروج الآن ياحبيبتي . عندي اجتماع .
ـ ربما يجعلني هذا اتمنى عودتك بائعا في المحل . كنت وقتها تبقى في البيت كل ليلة . ماذا نقول للرجل اذا جاء مرة ثانية ؟..
ـ يمكنه أن ينتظر .
ـ أنه لم يقبل هـــذا . هل ســتتأخر ؟ ..
ـ لا أعرف . المسألة تتوقف على الظروف .
ـ خذ معك معطف المطر .
ـ بالتأكيد .
لبست قبعتي وخرجت الى الليل المظلم . كنت اريد الميناء القديم و « المختلى » . فيهما عالم خاص أعيد فيه بين الموج والمد ترتيب أفكاري واسوى شغث نفسي . وفي الطريق رأيت الشرطي ويلى جالسا في سيارته في دوريته الليليـــة ، وما ان مررت به حتى بادرني قائلا :
ـ اسمع يا ايث . هناك شخص كان يبحث عنك . شخص في سيارة كريزلر كبيرة لها ســائق خاص .
ـ وما الذي يريده ؟ ..
ـ لا أعرف . سألني ان كنت شاهدتك . فلم اقل له شيئا .
ـ انت تستحق هدية ياويلى .
ـ اذا رأيت هذا الشخص، فهل اقول له انك ستعود الى البيت؟
ـ قل له ان يأتي الي المحل غدا .
ـ «كريزلر امبريال » . ، ابن اللئام ! طويلة في مثل اللوري !
وصادفت جو مورفي واقفا على الرصـــــيف أمام مطعم ومقهى فورماستر ، ينظر حوله مترددا متحيرا . فقلت له :
ـ فكرت انك ستذهب الي نيويورك لاخذ زجاجة مثلجة .
ـ الجو خانق ، ولم يساعدني قلبي على ذلك . تعال ندخـــل ونشرب يا ايثان . انني أشعر بغم .
ـ الجو خانق لايساعدنا كما قلت .
ـ يا للنحس ! اذا ركب الانسان ، فلا مكان يذهب اليه ، ولا صديق يجالسه !(...)

ـ يجدر بك ان تتزوج .
ـ وهنا يصعب الأنيس والجليس ! ..
ـ ربما كنت على حق .
ـ بل على حق كل الحق . ليس في الدنيا من يعاني الوحدة أكثر من المتزوج ! ..
ـ وكيف تعرف ؟ ..
ـ انني اراقبهم . وأمامي واحد منهم . ليس أمامي الآن من جليس سوى ساقي البار. سوف أسرد في سمعه الحلقات الكئيبة لحياة أعزب ضائع . ولن يمنحني سمعه الا بحساب ـ أو بالحساب! الى اللقاء يا ايثان . اذهب في رعاية الله . هـــــذا ما يقولونه في المكسيك ! ..

ولم أكد ابتعد حتى لمحت السيارة الكريزلر تنعطف وتقف عند ناصية بيت هاولي القديم ـ اي بيتي ـ وكان شكلها أقرب الى عربة الموتى منه الى سيارة لوري . كانت سوداء ولكن بغير لمعان بسبب قطرات المطر ورشاش الشحوم المتطاير من الطرقات .

عدت أدراجي ويممت شطر سيارة . فرأيت رجلا بقبعة سائق من خلال الزجاج الأمامي . وعندما نقرت بأصابعي على الزجاج انحدر زجاج النافذة بحركة كهربائية ، وشعرت بلفح تكييف هواء يهب على وجهي .

قلت : انا ايثان هاولي . هل تبحث عني ؟ ..

وعلى الأثر انفتح باب السيارة تلقائيا وخرج رجل نحيل أنيق الثياب ، وقال لي :

ـ انا دانسكومب ، مندوب تليفزيون بروك وشوين . أريد أن أتكلم معك .

ونظر الى ناحية السائق وأردف :

ـ ليس هنا . هل يمكن أن ندخل ؟ ..

ـ اظن . اعتقد ان الجميع ناموا . واذا تكلمت بهدوء ...

وسرنا في المشي الحجري بين الحشائش المبتلة . وكان الضوء الليلي ينبعث من الصالة . ولما دخلنا اضاءت نور مصباح القراءة فوق المقعد الكبير الخاص بي .

كان السكون يسود ارجاء البيت ، ولكنه بدا لي سكونا غير طبيعي ، مشوبا بالتوتر .

قلت له :

— لابد ان المسألة هامة حتى تحضر فى هذا الوقت المتأخر .

— هو هذا . اننا نريد أن نبقي هذه المسألة محصورة بيننا . ان هذه السنة كانت سنة عصيبة كما تعرف ، خصوصا بعد فضائح « الفوازير » وغيرها وما اقترن بها من تحقيقات لجان الكونجرس . لابد لنا الآن ان نراقب كل شيء . هذه أوقات خطرة .

— بودى أن تقول لى ماذا تريد ؟ ..

— هل قرأت الموضوع الذى كتبه ابنك فى مسابقة « احب امريكا ؟ .. »

— لا . لم اقرأه . انه أراد ان يفاجئنى .

— وهذا ما فعله . ولاأعرف كيف لم نضبطه ، ولكن هذا ماحدث. وبسط أمامى ملفا أزرق الغلاف وأردف :

— اقرأ ما تحته خطوط .

جلست فى المقعد وفتحت الملف . كانت الكتابة مطبوعة بآلة كاتبة شبيهة بحروف المطبعة . وقرأت ما يلى :

« احب امريكا »

« بقلم آلان ايثان هاولى »

« ما هو الانسان الفرد ؟ ذرة ، تكاد لا ترى بغير عدسة »
« مكبرة — مجرد نقطة فوق سطح الكون . لا حساب . له »
« فى الزمن ولو قدر ثانية بالقياس الى الابدية التى لا بداية »
« لها ولا نهاية لها ولا حصر لها ، قطرة من ماء فى الأعماق »
« العظمى تتبخر وتبددها الرياح ، ذرة من رمل سرعان ماتندمج »
« فى التراب الذى منه نجمت . فهل كائن بمثل هذا الصغر »
« وهذه الضآلة وهذا التلاشى وهذا الزوال يمكن أن يعوق »
« الزحف الدائب لأمة عظمى هى باقية على مدار اجيال وأجيال »
« قادمة ، ويقف فى وجه كل تسلسل ممتد من الذرارى المنبثقة »
« من اصلابنا وسوف يدوم ما دامت الدنيا ؟ فلنبذل لبلادنا كل »
« الرعاية والاهتمام ، ولنرتفع بأنفسنا الى مصاف الوطنيين »
« أولى العزة والنقاء والتجرد . ولندرأ عن وطننا كافة الأخطار »
« المحدقة المهددة . ما الذى نساويه — بل ما الذى يساويه أى »
« رجل — ان لم يكن على استعداد ولم ينبعث بقليل التضحية »
« بنفسه فى سبيل بلاده ؟ .. »

رحت أقلب الصفحات ، فرأيت الخطوط المدونة بالقلم الرصاص شائعة فيها من أولها الى آخرها وقال لى الرجل :
— هل تعرف هذه الكتابة ؟ ..
— لا . انها تبدو مألوفة . كأنها من كتابة القرن الماضى .
— هى كذلك . هى خطبة قالها هنرى كلاى ، عام ١٨٥٠ .
— وباقى الكتابة ؟ كلها من كلام كلاى ؟ ..
— لا . هى مقتطفات متناثرة ، بعضها من دانييل ويبستر ، وبعضها من جيفرسون ، وبعضها من لنكولن . ولست أعرف كيف أجيز هذا كله . واعتقد انه بسبب الآلاف المؤلفة الواردة للمسابقة. الحمد لله اننا ضبطناها فى الوقت المناسب .
— لايبدو ان هذا اسلوب صبى .
— لا اعرف كيف حدث هذا . وكان يمكن ان يمر دون ان نلتفت اليه ، لو لم يصلنا البطاقة البريدية .
— بطاقة بريدية ؟ ..
— بطاقة بريدية مصورة ، بها صورة ناطحة السحاب « امباير ستيت بيلدنج ».
— من أرسلها ؟ ..
— شخص مجهول .
— ومن اين ارسلت ؟ ..
— من نيويورك .
— دعنى أنظر اليها .
— انها محفوظة تحت القفل احتمالا لاية مشاكل . انت لا تريد ان تقوم مشاكل ، أليس كذلك ؟ ..
— وماذا تريد ؟ ..
— أريد أن تنسى الموضوع كله . ونحن من جانبنا سوف نسقط الموضوع كله وننساه ، اذا رغبت .
— ليس هذا بالشىء الذى يمكن نسيانه بسهولة .
— اقصد انه مطلوب منك ان تقفل فمك — لا تسبب لنا اية مشاكل . انها كانت سنة سيئة . فى سنة الانتخابات يمكن أن ينبش اى انسان اى شىء .
اقفلت الملف وأعدته اليه ، وقلت :
— لن أسبب لكم اية مشاكل .

فانفرج فمه من اسنان لؤلؤية ناصعة ، وقال :
ـ كنت أعرف هذا . قلت لهم هذا . اننى تحريت عنك .
فوجدت سجلك طيبا . وانت من اسرة كريمة .
ـ هل يمكن ان تذهب الآن ؟ ..
ـ اننى أقدر مشاعرك .
ـ اشـــكرك .
ـ اننى لا أحب أن اذهب وانت غاضب. ان مهنتى هي العلاقات العامة . يمكننا الاتفاق على شيء ، مثل منحة دراسية ، أو شيء من هذا القبيل ـ شيء له احترامه .
ـ لا . اذهب عنا فقط ، من فضلك .
ـ سوف ندبر هذه المسالة .
وتركته ينصرف وعدت الى الجلوس واطفـــات النور وجلست انصت الى البيت . كان يخفق مثل قلب ، ولعله كان قلبي او صرير البيت العتيـــق . وبدا لى أن أذهب الى دولاب الأسرة واخرج «التعويذة الحظ» لاضعها فى يدى ـ بل وقفت لكي افعل هذا.
دلفت الى غرفة ايلين واضات النور . وجـــدتها مكورة تحت الغطاء وراسها تحت الوسادة . ولمـــا حاولت رفع الوسادة تشبثت بها حتى اضطررت لنزعها عنوة . فرايت خيطا من الدم يســـيل من زاوية فمها .
قالت : انزلقت فى الحمام .
ـ ظاهر . هل اصابتك شـــــــديدة ؟ ..
ـ لا اظن .
ـ بكلمات اخرى ، ليس هـــــــذا من شانى .
ـ اننى لا اريد ان ياخذوه الى السجن ! ..
ووجدت آلان جالسا على حافة سريره ، عاريا الا من بنطـــلون قصير . وبدت عيناه كعينى فار حوصر ، فاستعد لمقاتلة المكنسة .
ـ الجبان القذر ! ..
ـ هل سمعت كل شيء ؟ ..
ـ سمعت ما فعله ذلك الجبان القذر .
ـ وهل سمعت بما فعلته أنت ؟ ..
انبرى الفار المحاصر الى الهجوم ، قائلا :
ـ وماذا يهم ؟ .. كلهم يفعلون هـــــــذا .

ـ هل تؤمن بهذا ؟ ..
ـ الا تقرأ الجرائد ؟ .. كلهم حتى اكبر شخصية ـ ما عليك الا أن تقرأ الجرائد . ان كنت متمسكا بالفضائل فما عليك الا قراءة الجرائد . لايمكن ان احتمل ذنوب الجميع . انا لايهمنى شيء . فقط ذلك المكان القذر .
استيقظت مارى . ورأيتها جالسة على حافة فراش ايلين . انها صخرة عاتية ، لا تتأثر بشيء ، ولاتهتز من شيء . لابد انها انصتت ايضا الى ما دار . وقالت لى :
ـ هل تأتى لكى تنام يا ايثان ؟ ..
ـ ليس الآن ، ياحبيبتى .
ـ هل تخرج مرة ثانية ؟ ..
ـ نعم . لكى المشى .
ـ انت محتاج الى الراحة . لايزال المطر يسقط . هل لابد من خروجك ؟ ..
ـ نعم . هناك مكان اعرفه . لابد أن اذهب اليه .
ـ خذ معطف المطر . انك نسيته قبل الآن .
ـ نعم ياحبيبتى .
لم اقبلها وهذا الجسد الصغير مكور فى الفراش . وانما لمست منكبها ووجهها ، فكانت كصخرة رابضة .
ذهبت الى الحمام برهة لآخذ علبة شفرات .
وما كدت اهم بأخذ معطفى من الصالة امتثالا لمارى حتى فوجئت بايلين تتعلق بى وتدس انفها الدامى فى صدرى وجسدها الغض يرتعد ، وقالت لى :
ـ خذنى معك .
ـ لايمكن يا « عبيطة » . لكن اذا جئت معى الى المطبخ فسوف اغسل وجهك .
ـ خذنى معك . انك لن تعود .
ـ ماذا تقولين ؟ .. طبعا سوف اعود . اننى اعود دائما الى البيت . اذهبى الى فراشك واستريحى . وسوف تشعرين انك احسن .
فتعلقت بى من جديد واخذت تربت على ذراعى وتدس قبضتيها المكورتين فى خاصرتى وفى جيوبى حتى خشيت أن تعثر على

الشعرات . كانت دائما بنية ملاطفة ، مترددة ، مدهشة في أطوارها وتقلباتها . ولم تلبث فجأة أن تخلت عني ووقفت عن كثب مني رافعة الرأس شاخصة العينين بغير دموع . فقبلت وجنتها الصغيرة وشعرت بالدم المتجمد تحت ملمس فمي . ولم ألبث أن استدرت الى الباب وأسرعت بالابتعاد . ولعلي هربت منها ومن ماري — خصوصا بعد أن سمعت خطواتها الرتيبة تهبط على السلالم .

الفصل الثاني والعشرون

كان المد في ارتفـــــــاع .

خضت في مياه الخليج الدافئة وتسلقت الى داخل « المختلى » والموج الواني يدخل ويخرج معزقا نصفي الأسفل وناثرا من حولي ما لاعدد له من قناديل البحر الصغيرة التي كانت ذؤاباتها تلتصق بساقي وبطني فتحزني وتؤلمني .

واستحال المطر الآن الى غلالة رقيقة كست النجوم ومصابيح البلدة حتى بدت كصفحة مضيئة قاتمة .

وجاءت موجة أقوى فرفعت ساقي حتى شعرت وكأنهما انفصلتا عني .

وشعرت بجسدي يلتهب تحت لدغات قناديل البحر . وعلى البعد لمحت سارية مركب صغيرة مارة ببرق ضوؤها ، ثم ما لبث الضوء أن اختفى بابتعادها .

لكن ضوء طروللو ما زال بارقا لم ينطفيء . وضــوء جدي الأكبر الكابتن هاولي ما زال ساطعا .

أما ضوئي فقد أفل وانطفأ . وليس أسود من ذبالة خامدة . وكم في الدنيا من حطام نفوس حالكة السواد بعد أن خبا منها كل ضياء .

هناك وقت يعرض للمرء فيقرر فيه الانسحاب كريما مشرفا ، بعيدا عن كل أسلوب مأساوي أو ابتغاء معاقبة النفس أو الأسرة . مجرد وداع رفيق يعقبه حمام دافيء أو شريان مفتوح ـ بجرداقة أو شــفرة ماضــية .

واندفعت الى الداخل موجة متعالية فرفعت ســاقي وفخذي والقت بها الى جانب المختلى وانتزعت معطفي في خروجها .

ثم تدحرجت على فخذي وامتدت يدي الى جيبي الجانبي تلتمس علبة الشفرات حتى عثرت عليها . ومن عجب أنني تذكرت اليدين اللاطفتين الحانيتين لتلك التي تغمرني بضياء محبتها ، ولذا يدي قد استعصى خروجها من جيبي المبتل . وشعرت كأنما اجتمع في هذه اليد كل ما في الكون من ضياء وسناء .

ثم دفعتني هجمة من الأمواج والقت بي الى اقصى «المختلى».
وزادت حدة الموج . ولم يكن بد من مغالبة الميـــاه لكي أخرج ، وكان على أن أخرج من « المختلى » . فأخـــذت الدحرج وأزحف واندفع واتخبط في مياه غطت صـــــدري ، الى أن دفعني تقلب الأمواج الى جدار عتيق من كتب من المختلى .
كان لزاما على أن أخرج . كان لزاما على أن أعيـــد التعويذة الى صاحبتها الجديدة وحاملة الضياء المتجدد .
والا خبا الضياء وانطفأت الشعلة .

تمت

روايات الهلال
تقدم الشهر القادم

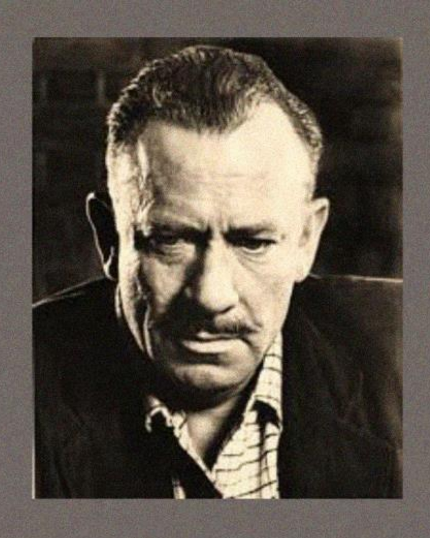
سعادة الأسرة

بقلم الكاتب الكبير

ليوتولستوى

ترجمة

مختار الوكيل



جون ستاينبيك كما يلفظها الأمريكيون, كاتب أمريكي مبدع، من أشهر أدباء القرن العشرين. اشتهر بقصصه حول الحرب العالمية الثانية. ويكيبيديا

الميلاد: ٢٧ فبراير، ١٩٠٢، ساليناس، كاليفورنيا، الولايات المتحدة

الوفاة: ٢٠ ديسمبر، ١٩٦٨، مدينة نيويورك، نيويورك، الولايات المتحدة